عود على بدء

تأليف

إبراهيم عبد القادر المازني

الناشر

شركة نوابغ الفكر

obeikandl.com

الطبعة الاولى
1430هـ - 2009م
حقوق الطبع محفوظة للناشر
شركة نوابغ الفكر
19 القطامية (القاهرة)
هاتف:25936402 ،فاكس: 27865553
E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابراهيم عبد القادر المازنى ، ابراهيم بن محمد بن عبد القادر ، 1890-1949
عود على بدء / ابراهيم عبد القادر المازنى
- ط 1 – القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، 2009
ص ، سم
تدمك :5-33-6305-977-978
1- القصص العربية
ا- العنوان

ديوى : 813

رقم الايداع : 2009-8409

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

١

قالت امرأتي ونحن ندنو بالسيارة من طنطا:

«بعد زيارة السيد البدوي، مل بنا إلى بيت الشيخة صباح لنسلم عليها».

قلت: «لا صباح ولا مساء. الوقت ضيق».

قالت: «أرجو، لأجل خاطري...».

قلت: «يا امرأة، ألا تتقين الله في هذا العبد الصالح الذي سخره الله لخدمتك وخدمة بنيك؟».

قالت متهكمة، مستضحكة: «أنت عبد صالح؟».

قلت: «من حسن الحظ أنه لن تنصب امرأة لنا الميزان يوم الحساب. على كل حال، نحن الآن بعد العصر، وما زال علينا -عليَّ أنا- أن نقطع مائة كيلو وزيادة قبل أن نبلغ القاهرة، وأخشى أن يتحلل بي التعب إذا أدركنا الليل قبل أن أفرغ من الطريق، أم ترى تعبي راحة لك؟ ثم إنك قد سلمت عليها من أربعة أيام ليس إلا، فما حاجتك إلى سلام جديد؟ أهو زاد تتزودينه للطريق؟».

قالت، وكأنها تحلم: «لست أشبع من النظر إلى حسن وجهها».

وقد صدقت.

فقد كانت الشيخة صباح على الرغم من «التمشيخ» غيداء، حسناء، مبتلَّة، ورطبة حلوة، يجري ماء الشباب في محيَّاها من نضرة النعمة، ولو طبع وجهها على «جُنَيْهٍ» لزانته وأغلته، وكان شعرها الفاحم السبط، والورد الذي تتضرج به وجنتاها، من آيات صنع الله، تبارك وتعالى من خلاق عظيم، أما عينها النجلاء الرقيقة الجفن «الجِنِيَّةُ» الإنسان فأنفذ من أشعة «إكس» إلى حنايا الصدور وطوايا القلوب.

وقلت: «إذا كنت تشعرين أنكِ لن تطيقي الحياة إلا إذا حملتك إلى ذلك البيت الضيق لأختنق ساعة بالبخور المنطلق من المجامر حتى تتفضل فتبرز لك، وتمن عليك بإنبائك -وأنا من الشاهدين- أن «أمامك سفرا»...

فصاحت بي مقاطعة «اسكتْ، وحذار أن تذكرها بغير الخير».

فسكتُّ، وما حيلتي؟

***

ورف السجف، ودخلت علينا الشيخة صباح مسترسلة الأعطاف، ناعمة، غير متثنية على لينها، كأنها مَلِكة، وكانت ترتدي ثوبًا أبيض رقيقًا من الكتان، وتغطي رأسها بشِف ينسدل على جانبي وجهها إلى كتفيها وصدرها الناهد، ويحجب جيدها الأتلع ويدور على ذقنها إلى قريب من ثغرها الدقيق الرفاف الشفتين الذي ما خلق إلا للقبلات الحرار، لا لما يلهج به، واستغفر الله...

وقبلتْ زوجتي، ومدت إليَّ يدًا رخصة هممت أن أبوسها بطنًا وظهرًا، لولا هذه الزوجة التي لا تزال تظلمني بسوء ظنها.

ولما دارت القهوة. نظرت إليَّ وقالت:

«أرني كفيك... أبسطهما».

ولمستهما لمسًا خفيفًا ثم أرسلتهما وأطرقت شيئًا ثم رفعت رأسها وخدقت فيَّ دون أن تطرف وقالت:

«ستُعطي ما لم تطلب، وتُؤتي ما لا يباع ولا يشترى، وتُسْلَبُهُ في اليوم نفسه...».

فرفعت عيني إلى السماء -أو إلى السقف- ولمحت زوجتي وقد أخذ كتفاها يهتزان من الضحك المكتوم.

ومضت الشيخة صباح في نبوءتها غير عابئة بنا.

«... وسيُنضي عنك ثوبُ الرجولة... إلى حين يا صاحبي».

ونحَّت وجهها عني.

وقالت وهي تودعنا:

«أحسبني لم أخاطب منك سوى أذنيك، فإني أحس أن قلبك بعيد...».

فأكدت لها أنه «مازال في موضعه، تحت الضلع العاشر، أم تراه الخامس عشر؟ معذرة، فلست أعرف عدد هذه الضلوع».

فجذبتني امرأتي من ذراعي، ثم دفعتني خارجًا، وسمعتها تقول للشيخة صباح: «إنه يمزح... فلا تغضبي عليه». فقرضت أسناني، ولم أقل شيئًا.

٢

ولما صرنا في البيت، وجلسنا إلى المائدة نتعشى، قال أحد الشقيين -ولديَّ ولا فخر:

«هل تعلمين يا ماما أنك عدت أصبى وأجمل؟ ومع ذلك لم تغيبي سوى أيام أربعة».

قلت: «لا عجب؛ فقد استراحت من وجع الرأس الذي تورثانها». فضحك الشقي الأكبر، وعاد الأصغر يقول:

«صحيح يا ماما، رجعت بنت عشرين».

فقلت: «في مثل سنك وتنافق، وتداهن، وتتملق، فكيف إذا دخلت مداخل الرجال؟».

فألقت إليَّ نظرة تنطوي على نذير أعرفه بالتجربة، فلئن لم أستدرك ليحيق بي ما أكره من ائتمارها مع هذين اللعينين، فقلت: «وهل رأيتها أسنَّت وكبرت، وشابت، وشيّخت حتى تقول: إنها ارتدت بنت عشرين؟ ومتى كانت إلا بنت عشرين أو أقل ... رفافة الحسن ..».

«ولو...».

فبلعت ريقي، وبلعت معه لقمة بلا مضغ.

وعاد الأصغر يسأل -فإنه ثرثارة مشهور- «قولي لي يا ماما، ماذا تصنعين إذا رُددتِ بنت عشرين؟».

قالت بسرعة: «أذهب ألعب معكما».

قال: «وبابا...؟ ماذا يصنع؟».

قالت، وهزت كتفيها: «يصنع ما بدا له... ما لي أنا؟».

قال: «وتظلين زوجته؟».

قالت -وعينها عليَّ-: «أظل زوجة هذا الذي تصطك ركبتاه من الكبر؟؟».

ولم يكن عندي لهذا الطعن القبيح المفاجئ، جواب حاضر. وعلى أنها لم تمهلني فمضتْ تقول:

«بل كنت أنتظر حتى أبلغ وأرشد، ثم أزف على فتى نجيب بارع عليه طلاوة، وله مال، وفي خُلقه دماثة، وفي نفسه طيب وخير».

فقلت: «حسبك! والله يسامحك، وما أظن بك إلا أنك ستعذبين في جهنم الحمراء عذابًا غليظًا طويلًا بما تجحدين من نعمة سيدك وتاج رأسك...».

وسكنت الثورة، وقرت الفورة، وجمعت الخادمة ما على الأرض من المقذوفات المرتجلة المصنوعة من لباب الخبز الطري على هيئة الكرات الصغيرة.

وهي خادمة «فلكية» تغنيني عن مرصد، فتريني نجوم السماء طرًا في الظهر الأحمر، ورثتها عن أمي؛ لأنها -أي الخادمة- أنقذتها من بين أخفاف الإبل في طريق «منى» قبل عهد السيارات. وكانت أمي رحمها الله قد استصحبتها في

حجها الأول لتقوم على خدمتها. ولعلها آنست منها القدرة على الشيل والحط. وكانت -أي أمي- وهنانة لا عهد لها بالجمال ولا قدرة لها على احتمال المخض من سيرها فدار رأسها فتدحرجت وهوت إلى الأرض. فلولا أن نطت الخادمة ورفعتها لقضى عليها، فحفظت لها هذا الجميل، وأبت أن تسرحها بعد ذلك، وأوصتني بها خيرًا، وهكذا ورثتها عنها.

والإرث يباع، أو يرهن، أو يوهب أو يبدد، ولكن الدول، كما تعلم، أجمعت -لكيدتي- على تحريم الرق. فلا سبيل إلى بيع هذه الخادمة أو رهنها أو وهبها. ثم إنها لا تساوي ملء أذنها نخالة، ومن المستحيل تبديدها لأنها هائلة الأنحاء جدًا. والعمر -كل عمر- أقصر من أن يتسع لهذا الجهد. وعسير جدًا إضاعتها لأنها تعرف الطريق إلى البيت، ولعله كل ما تعرفه. وقد خطر لي أن أتخلص منها، كما تتخلص الناس من قطة مزعجة لم يبق فيها خير، فيضعونها في غرارة ويحملونها إلى مكان سحيق، وهناك يطلقونها أو يدلقونها، فتضل الطريق ولا تعود. ولكن أين الغرارة التي تسعها -أعني الخادمة- وأين الكتف التي تقوى على حملها؟ فهي قعيدة البيت ولا حيلة لي في ذلك.

وشر ما فيها، إخلاصها، ومن العجائب أن تنقلب المحمودة مذمة، والمزية منقصة، والفضيلة رذيلة. ولكنها الدنيا وأنت سيد العارفين. وكل ما فيها اعتباري، كما لا أحتاج أن أبين لك؛ قمت مرة برحلة مع صديق لي، فأضفنا رجل كريم، سيد ماجد. ففرحنا وزهينا. فإن مثله يفخر المرء بأن يكون -أي

المرء- ضيفًا عليه. وكان يسبق كل رغبة لنا باقتراحها وتحقيقها. ويعني براحتنا وسرورنا، عناية لم تترك لنا رأيًا أو إرادة أو شعورًا حتى بحرية التفكير. وكانت مبالغته في تحري مرضاتنا، عن كرم وإحساس مرهف بالواجب، لا عن ثقل نفس، أو رغبة في التظاهر. وكنا على يقين من هذا. ولكنا مع ذلك ضقنا ذرعًا بهذا الكرم. وما كدنا نرحل حتى تشهدنا كأنا كنا سجناء.

وما زلنا نضحك كلما تذكرنا كيف ظلمْنا هذا الرجل الكريم وغمطنا حقه وجحدنا فضله.

وأعود إلى هذه الخادمة المخلصة الأمينة فأقول: إني أغلط أحيانًا فأناديها وأطلب أن تجيبني بشيء، فتجيئني بخلافه. ولا تغلط مرة واحدة فتجئ بما أريد.

أقول: «هاتي الكبريت».

وليس في لفظ الكبريت ولا في حروفه ما يمكن أن يلتبس «بالجبن الرومي». وهي ليست بالصماء فإن سمعها كسمع القطة. وأنا خفيض الصوت ولكني أتوخى معها أن أزعق وأصيح. حتى ليبح صوتي، ويوجعني حلقي، وأمرض يومًا أو يومين، ومع ذلك لا تكاد تسمعني أطلب الكبريت حتى تقول: «حاضر» وتعند إلى ملاءة سوداء تلفها على نفسها -فإنها حيية- وتخرج فتشتري لي جبنًا قد يكون روميًّا غير مزيف أو مقلد، ولكنه لم يخطر لي على بال، ولا كانت لي رغبة فيه.

وأراها مقبلة عليَّ تحمل على كفيها صينية عليها طبق فيه الجبن الرومي وشوكة وسكينة وفوطة ولقمة -فإنها تدرك من تلقاء نفسها وبغير حاجة إلى تلقين أن الجبن الرومي لا يؤكل وحده فلا بد من خبز معه، وما دام سيدها سيأكل، وقد اشتهت نفسه الجبن الرومي فهل تتركه يوسخ يده؟! معاذ الله، وهذا هو تفسير الشوكة والسكين.

وأنظر إلى هذا الذي على يديها فأتميز من الغيظ. وأكاد أطق وأنفلق، ولكني ألمُّ نفسي بجهد، وأهز رأسي، وأروح أتعجب لقدرة ربي على خلق كل هذه الأصناف من الناس. هذه امرأة لها كل ما لي -تقريبًا- من الأعضاء. وليس ينقصها شيء. وهي تتكلم العامية التي نتكلمها ولا أعرف لها لغة غيرها. ومع ذلك لكل لفظ في هذه اللغة معنى عندها غير معناه عندنا، فالكبريت معناه الجبن الرومي. والكتاب معناه طاحونة البن. والكلب معناه «الخيط والإبرة». والكمون معناه السجاير إلخ... حتى لقد خطر لي أن الألفاظ التي تبدأ بالكاف هي التي انفردت عندها بهذا الحال المقلوب، وأنا أحصي هذه الألفاظ إيثارًا للراحة وأثبت معانيها إلى جانبها ليتسنى لي أن أخاطبها بلغتها فأقول لها مثلًا: «خذي اشتري لي كمونًا». ويكون مرادي السجاير. أو «هاتي كلبًا وخيطي هذا الزرار». وإذ مرَّ بالشارع الذي يصلح طواحين البن قلت: «خذي الكتاب فأصلحيه عنده» أو «اشتري لنا كرنبًا» أي: بترولًا... إلخ إلخ ولكني أخشى أن

تتطور اللغة عندها وتكتسب الألفاظ كل بضعة أيام معاني جديدة فيذهب تعبي سدي.

وآه إذا مرضت... تلازمني ولا تبرح كرسيها إلى جانب سريري، وليتها تسكتْ ولكنها لا تكف عن الكلام والدعاء والتنهد وضرب الكف بالكف. ثم ليت هذا كان كل ما تصنع فإنها لا تفتأ تجسني، وتلفني، وتدس اللحاف تحتي هنا، وهاهنا، وتسوي لي المخدة، وترفع رأسي تحطها، وتستخبرني عن حالي ومبلغ سوئه، حتى يكاد عقلي يطير، وما دمت مفطومًا عن طعام أهل البيت وملتزمًا الحمية الموصوفة فهي صائمة، لا كصيام المسلمين من عباد الله، بل كصيام غاندي إلا عن قطرات من الماء كحسو الطائر، لبل الريق.

وربما تعجبت لها وتساءلت: «أترى أمي لم تكن أمي، بل تبنتني، وهذه هي أمي الحقيقية؟! وإذا لم يكن ذاك -وأرجو ألا يكون- فهل الأمومة عندها قوية إلى هذا الحد؟ ولكأني بها تنظر إلى ضخامة جسمها، وذهابه طولًا وعرضًا، وضآلة جسمي وهزاله فتحنو عليَّ، وترأمني».

وأقول وقد برمت بهذا العطف «الفاحش» «ما كان ضر أمي لو نسيت أن توصيني بها قبل موتها؟».

ويجيء الطبيب، وهو يعرفها ويطيب له أن يعابثها، فيهول عليها بما أصابني من برد أو غيره. فتروح تبكي وتندبني، قبل الأوان سامحها الله! وينال الطبيب جزاه أيضًا، فتأخذ بتلابيبه، ولا تدعه يبرح غرفتي إلا بحيلة يحتالها. ولولا ذلك

لسجنته معي حتى أشفى. وكثيرًا ما يقول لها: «يا ستي الحاجة الشفاء من الله، ولست إلا واسطة خير». فلا تقتنع ولا تطلق سراحه.

وأقول لامرأتي: «هاتي لي كل ما أمر الطبيب باجتنابه من الأكل».

فتسأل عن السبب فأقول: «إن هذه الحاجة لا تقتنع بأني شفيت إلا إذ أكلت ما يأكل الناس، ولن تعفيني من عطفها ما لم أفعل. فاصنعي مغروفًا وأطعميني وأمري إلى الله. وسأموت على التحقيق وسيكون دمي في عنقها ولكن ما حيلتي؟».

فتضحك الزوجة وتقول: «لا تغالط. إنما تريد أن تأكل، وتخالف أمر الطبيب».

فأقسم بكل يمين أعرفها، ولكن من يصدق؟

حتى أنا، ينتهي الأمر بأن يساورني الشك أحيانًا، ولي العذر.

***

وقالت امرأتي تخاطب أصغر الشقيين:

«لقد أذكرني سؤالك حكاية سمعتها، أو قرأتها. وأنا صغيرة. قالوا: إن ملكًا واسع السلطان، أسن ولم يرزق ولدًا، وكان تقيًا صالحًا فدعا الله أن يرده شابًا. ونام فهتف به هاتف: أن قمْ فكل من شجرة التفاح، فإن عليها ثمرة في غير أوانها، وكان له بستاني هرم هِمٌّ يتوكأ على العصا، وكان يجوس خلال البستان، فبلغ الشجرة ونظر فإذا ثمرة ناضجة تتدلى فتعجب، ومدَّ يده فقطفها، وخطر

له أن يهديها إلى الملك، غير أنه راجع نفسه، واستقل الهدية، وإن كانت نادرة، وقال لنفسه: إن تفاحة واحدة ولو كانت غير أوانها، لا تستحق أن ترفع إلى ملك، وليس يضيرني أن آكلها، فلن يفتقدها أحد وهذا غير أوان التفاح، ثم إني جوعان فما طعمت في يومي شيئًا. فأهوي عليها بأسنانه حتى أتى عليها، وعاد إلى كوخه فنام، وجاء الملك بعد قليل، فلم يجد تفاحة، ولا إيذانًا بتفاحة، فلم يستغرب، وقال: ما كان لي أن أتوقع غير ذلك، إن هي إلا أضغاث أحلام. وكرَّ راجعًا إلى قصره وأقبل ابن البستاني على الكوخ ليوقظ أباه، فألفى في فراشه فتى منظرانيًّا فتعجب وتساءل: مَن عساه يكون؟ وأيقظه وراح يسأله: من يكون؟ وماذا جاء به؟ وماذا يصنع في كوخ أبيه؟ فقال: «أنا أبوك... ألا تعرفني؟». قال: «أبي؟ وكيف يمكن أن تكون وأنت أصغر مني وأصبى؟».

وأمكست. وجلسنا صامتين ننتظر البقية. فضحكت وقالت: «نسيت بقية الحكاية».

فصاح بها الشقيان محتجين: «لا لا لا يا ماما... هذا لا يجوز...».

قالت: «فليتهما بابا».

قلت: «كيف يمكن أن أفعل وأنا ما سمعتها إلا الساعة؟».

قالت وهي تنهض عن المائدة وترفع أطباقًا: «أليست دعواك أنك واسع الخيال؟ تخيل إذن، ولا تخيب أمل ولديك...».

فنهضت مثلها، ودنوت منها، وغافلتها، وقرصتها. فلولا لطف الله لتهاوت الأطباق قِطعًا متناثرة.

وكانت ساعة! ثم لاحت لي فرصة، ففررت إلى غرفتي، وأوصدت بابها.

٣

فكأنما أوصدته دون عالمي كله.

وكنت قد أشعلت سيجارة، واستلقيت على جنبي معتمدًا بكوعي على المخدة، ومسندًا رأسي إلى كفي، وذهبت أفكر في أمر هذه الزوجة الصالحة التي لا تفتأ تغري ولدينا بالمعابثة وتشاركهم فيها. وحدثت نفسي أنها ولدان صغيران غريران، وإن كانا عفريتين. وأنها هي ليست إلا امرأة، والمرأة فيما تصفها الحكمة المأثورة أو الشائعة على الأقل: ينقصها العقل والدين. ولأنا خليق، بفضل السن، والتجربة، والخيال، وسعة الحيلة، والقدرة على الابتكار، أن أقهر ثلاثتهم في هذا المعترك. وإني لأعلم أن الكثرة تغلب الشجاعة، وأعرف أن هؤلاء الثلاثة لا تنقصهم الشجاعة، ولكني أعرف أيضًا أن شجاعتهم هذه إن هي إلا ثمرة تدليلي لهم، طول أناتي وحلمي معهم. وإنما يتعفرتون. ويتشيطنون، ويركبون رءوسهم بالعبث، لأني أستملح ذلك وأحبه لهم وأوثر تفكيههم بما يطيب به عيشهم، ويجمل الحياة والدنيا في عيونهم، وقد أوهمهم طول مساناتي لهم، وفرط ترفقي بهم، أنهم يستطيعون أن يبذوني

ويسبقوني في هذه الحلبة، فيحسن أن أريهم «بعض» النجوم في الظهر الأحمر... أي نعم، أدب هين أؤدبهم إيَّاه، يزجرهم زجرًا كافيًا عن طمع مسرف يطمعونه علي حلمي.

وغلبني النعاس، وأنا أحدث نفسي بهذا. ونمت ملء جفوني على هذه النية الطيبة السارة بإذن الله.

وكان النوم عميقًا هنيئًا لا حلم فيه فاستوفيت حظي منه كاملًا لا ينقص دقيقة واحدة، ثم استيقظت على نور الصبح، فتعجبت لهذه البلجة من أين جاءت، وأنا قد غلقت الشبابيك والباب قبل أن آوي إلى الفراش؟ وفركت عيني لأستثبت. ولكن الضوء الساطع كان يحوجني إلى تغميض عيني، والمدناة بين جفونها على أنها ما لبثت أن فتحت عيني جدًّا. فقد رأيت امرأة في مئزر أبيض، تنحي ستائر عن شباك -كالباب- عريض لا عهد لي به. فغضضت البصر وأدرت وجهي إلى الحائط، وفي ظني أن هذه حلم يتراءى لي. ومن أين بالله يمكن أن تجيء المرأة ذات المئزر الأبيض؟ ومن أين تدخل والباب موصد ومفتاحه فيه -أو لا بد أن يكون فيه- فما رفعته منه؟ وأني لي هذه الستائر الرقاق الموشاة بمثل صور الطير، وليس في بيتي من الأستار إلا كل غليظ النسج قاتم اللون؟ وما هذا الشباك العريض كالباب؟ بل هو باب، وغرفتي ذات شباكين ولا باب فيها إلا ما أوصدت؟

إنه حلم على التحقيق، فلننعم به ما دام، وألفيتني أدعو الله في سري أن يجعل المرأة ذات المئزر خودا منظرانية، فإنه ما دمنا نحلم ولا نرى حقًا فلا أقل من أن نحلم بخير.

وسرعان ما استجاب الله دعائي، فليته يفعل ذلك في اليقظة -يقظتي أنا، كما لا أحتاج أن أقول فإنه سبحانه، لا ينام فاستدارت، فإذا هي من البيض الحسان والحواريات المسمورات، حلوة رقراقة ناعمة، ووضيئة قسيمة، مستغنية بجمالها عن كل زينة، فتبسمت لها، وقد رفَّ لها قلبي، وهي مقبلة عليَّ، تهفو كالنسيم، ولا تكاد تمس الأرض، فما كنت أسمع وقع قدميها، وهي تمشي إليَّ، وعلى ثغرها النضيد ابتسامة ما أحلاها وأعذبها! فلماذا يا ترى نُحرم مثل هذا في عالم الحقيقة، ونخايل به في أحلامنا؟ وأشفقت -وأنا أرنو إليها مغتبطًا بدنوها مني شيئًا فشيئًا، متطلعًا إلى حلاوات سأتذوقها منها، ولذات سأفوز بها من قربها أقول أشفقت أن يكون مصور الحلم قد جعل لها قدمين على هيئة السمك أو ذنبه، وخفت أن تنقلب الغرفة بحيرة، والسرير زورقًا، وتذهب تسبح بنت الماء هذه، وتطالعني من هنا، وهاهنا وتحاورني، فأحاول أن أدركها، فيضطرب الزورق في الماء وأغرق فما أحسن السباحة، أو أبتل على الأقل.

وصوبت عيني إلى الأرض فطمأنت نفسي. فما زلنا في الغرفة. وإن للفتاة لقدمين دقيقتين جميلتين، وإن ساقيها لممشوقتان واتكأت على السرير راحتيها، ومالت، وصار محياها فوق وجهي، وبينهما شبران، أو أقل، فليتها تختصر

المسافة أو تختزلها أو تمحوها! وقالت بأعزب صوت صافح أذني: «صباح الخير يا بابا...» فحيرني قولها: «يا بابا». أهو تدليل لي أو مفاكهة؟ إن كان هذا فأنا خليق أن أسر، أم هي إشارة إلى ما بيننا من فرق السن؟ إن تكن الأخرى فهي ليس من حسن الذوق على الريق. وخطر لي أني جدير -على الحالين- أن أسر بأن أُصبح على هذا الوجه الحسن، وراقتني، وأنا أنظر إليها -بل أحدق فيها- نقرتان عند الشدقين حفرهما الابتسام، فافتررت لها كما تفتر، وقلت لها أمازحها مثل مزاحها، وإنها لأولى بذلك من الحاجة:

«صباح الخير يا ماما...».

وما كدت أفعل، حتى وجمت، ووضعت يدي على فمي، فما كان هذه بصوتي ولا هو يشبهه، وإن صوتي لأجش، جهير، وفيه برجمة، وغلظ، وكثيرًا ما عابتني به امرأتي وزعمته صلبًا شديدًا، مبالغة منها على عادتها، عندما تمزح. وقد قالت في صفته مرة: إنه «ضوضاء». أما هذا الذي سمعته من نفسي حين حييتها فصوت ناعم دقيق مع ارتفاع، كأصوات الصبيان قبل أن يبلغوا الحُلُم، أو أصوات البنات، فماذا جرى؟ هل أصاب حلقي شيء؟ وتحسست رقبتي، وبلعت ريقي لأستوثق، فلم أشعر أن بي شيئًا.

ورأت الفتاة سهوم وجهي، وشرود نظراتي، فأراحت كفها على كتفي وسألتني: «ما لك؟ ألست بخير هذا الصباح؟».

فتنبهت، ووقع من نفسي ما في صوتها من الحنو، وأسرعت فقلت: «نعم بخير. شكرًا لك».

وارتعت ثانية لما سمعت هذا الصوت الجديد الناعم، وأحسب أن وجهي امتقع فقد حنت عليَّ، وراحت تمسحه لي بكفها الرخصة، وتحبسه، وكاد طيب لمسها يذهلني عن تعجبي لصوتي وإنكاري له.

وسمعتها تقول: «كلا. لا شيء بك، وسأجيئك بطعامك، فتهيأ له». وألقت إليَّ ابتسامة وانصرفت خفيفة كمر النسيم.

وجلست على السرير وقلت لنفسي: «هذه خلوة يحسن أن أقضيها في جلاء هذا الأمر». ورفعت يدي إلى رأسي أسوي شعري وأسرحه بأصابعي. وإذا بيدي تقف وعيني تشخص، فإن شعري قليل خفيف، على طوله، وقد استوى بياضه وسواده أما هذا الذي تخللته بأصابعي فكثير مجتمع مسترسل إلى القفا، وهوت يدي إلى خدي من الدهشة، فإذا الصفحة ملساء ناعمة أسيلة، وبضة طرية لا أثر فيها لشعر نابت يحتاج إلى الموسى لحلقه. فأدنيت أصابعي في حذر وإشفاق من شفتي العليا فكان ما خفت أن يكون. ولم أجد شيئًا. وزاد عجبي أن أحسست في هذه الشفة انقلابًا يسيرًا واسترخاء. فدفعت الغطاء وانتفضت أريد الوثوب إلى الأرض لأنظر في المرآة وأتبين ما حلَّ بي، ولكن الغطاء لم يكد يُطرح وينحسر حتى جمدت مكاني. فقد ألفيتني في ملابس صبيان؛ سراويل قصير لا ساقي له، وقميص مقوَّر الجيب بغير كم، والجِرم كله جِرم حدث، لا

جرم الرجل الذي أعرف أني هو -أو أني كنتُه- ودلت ساقي من فوق السرير فلم تبلغا الأرض، فجعلت أهزهما وأتأمل بضاضة بشرتهما، وأتعجب أين ذهب الجسم الذي كنت فيه؟ وكيف دسست في هذا الإهاب الجديد؟ واشتهت أن أسمع صوتي فرحت أتكلم بصوت خفيض مخافة أن يدخل عليَّ داخل فيستقل عقلي. واشتهيت أن أرى وجهي وصورتي في مرآة، فإني أرى معظم بدني، ولا أرى وجهي وطولي وعرضي، ولكني خفت أن يباغتني أحد وأنا أتأمل نفسي في المرآة وأدور أمامها، فقلت: أنتظر حتى أغتسل أو أغير ثيابي، فلا بد أن لي ثيابًا أخرى، وعسى أن تكون في هذه الخزانة.

واستثقلت هذا الحلم، وضاق صدري بالتحول الذي تحولته فيه، وإذا طال الحلم فستتراخى السنون وتتعاقب قبل أن أبلغ مبالغ الرجال مرة أخرى. ثم ضحكت، فإن الأحلام تبدو لرائيها كالدهر طولًا فيما يحس، ولكنها لا تستغرق أكثر من ثوان أو دقائق، وفاء بي هذا الخاطر إلى حد من السكينة والرضى، فقلت: إنها على كل حال رؤيا سينسخ الإصباح كل ما فيها من صور، ولا منطق للأحلام، ولا ضابط، ولا آيين تجرى عليه فإنما هي خيالات تتمثل، وأضغاث كسهادير السكر، وليس بمستغرب في حلم أن يرتد المرء حدثًا ابن عشر -ترى كم بلغت؟- والله لقد نسيت كيف كنت إذ أنا طفل، فلعل ما أنا فيه يجدد لي الذكرى ويحيي ما غمض، وينشر ما انطوى.

ولمحت الباب يفتح فاستحييت أن تراني هذه الفتاة المليحة عاري الساقين، فأسرعت فرفعت رجليَّ إلى السرير وتغطيت بالملاءة وأسندت رأسي إلى شباك السرير.

وكانت تحمل صينية كبيرة عليها أطباق شتى مغطاة وفنجان وإبريق وفوطة. فوضعتها على منضدة قريبًا من الشباك أو الباب على الأصح ثم انثنت إليَّ وقالت:

«ألا تزال في سريرك؟ ما هذا الكسل؟ تعال».

وحنت عليَّ. وطرحت الملاءة عني، وراحت تدلك لي جسمي من فوق. فأغمضت عيني مستحليًا ذلك منها، ولكنها هوت بكفيها إلى الفخذين فدفعت يدها وتغطيت وصحت بها، وقد أنساني الحياء ما أنكر من صوتي:

«كله إلا هذا».

قالت متعجبة: «ماذا جرى لك اليوم؟ ألست أفعل هذا كل يوم تقريبًا؟!».

كل يوم...؟ إن هذا الحلم أطول مما أعرف!! فما أغربه من حلم مقتضب يبدأ من نصفه؟ وهل ترى اسمي فيه بقى كما أعرفه أو تغير هذا أيضًا؟ وهل تراني أجرؤ على الاستفسار؟ أم ستتاح لي فرصة فأعرفه بلا سؤال؟

وسمعتها تقول: «ما لك لا تجيب؟ إنك اليوم متغير».

فقلت في سري: «لو عرفت لعذرتني» ثم لها «لا حاجة بي إلى التدليك. ثم إنه غير لائق».

فاستضحكت ثم قالت: «غير لائق؟ هذا جديد... هذا ممتع».

قلت: «ممتع أو غير ممتع، سيان. لا أريده والسلام».

فهزت رأسها وقالت: «إنك لطفل غريب: لا ينقضي منك عجبي، طيب. قم إلى طعامك».

فسألتها: «ألا أغتسل أولا؟».

قالت: «طبعًا. تعال».

وتقدمتني إلى باب لم أفطن إليه من قبل، يُفتح على حمام، ورأيتها تسبقني إليه فناديتها فخرجت إليَّ فما أسرع ما اندفعت داخلًا وأغلقت الباب ورائي.

ورأيت في الحمام مرآة فوق الحوض، إلا أنها عالية لا تريني إلا وجهي وصدري. ولم يخطئ ظني. فقد كان الوجه صابحًا والشعر شعر جدث، ولكنه لم يعجبني، فقد كان -أي وجهي- كأنه منتفخ الصفحتين، وكانت الشفتان شديدتي الحمرة وعلياهما منقلبة قليلًا كما ظننت، حيث ينبت الشارب، على أني حمدت للذي صورني هذه الصورة أنه لم يجعلني أشرم.

ونظرت بعد ذلك إلى ألوان الطعام ثم إليها وسألتها:

«ألا تشاركينني؟».

فابتسمت، وشكرتني وقالت إنه طعامي وحدي.

فقلت: «كلُّ هذا لي؟ أتعنين أنك تتوقعين أن أحشو معدتي وأكظها بكل هذا؟ إذن سأمرض بلا شك».

قالت: «كلام فارغ، إنك أكول مبطان، أوتحسب أني لا أعرف ماذا تلتهم في نهارك بين الوجبات من شكولاته، وفول سوداني، وحمص وغير ذلك؟ كل وأنت ساكت، ولا تتظاهر بهذه الزهادة، فلولا شفقتي عليك لأخبرت أمك».

قلت في سري: «ولي أم أيضًا... ترى كيف هي؟» ثم للفتاة: «ولكن... زبدة وجبن وبيض مقلو مع اللحم المتمَّر، وقشدة، وعسل، ولبن وشاي، وهذا. ما هذا؟ آه خبز مكسر على السمن. فماذا تظنينني بالله؟ غولًا... ألا تعرفين أن «الغازات» تسوِّد عيشي؟ فكيف آكل هذه وآمن فورتها وثورتها؟».

ونسيت وأنا أقول هذا الذي ردني طفلًا، وكرَّ بي راجعًا كل هذا الزمن لا بد أن يكون قد عُني بأن يضع لي مكان معدتي العتيقة، معدة جديدة شابة؟ فما يعقل أن يكون هذا قد فاته، وإلا صار ما صنعه بي تخليطًا لا يستقيم مع الأمر.

وقالت الفتاة (ألا ليت أحدًا يناديها باسمها فأعرفه فقد أحتاج إليه، ثم ليتها تدعوني باسمي لأعرف من أنا): «ما هذا الكلام الذي تقول؟ إنه أشبه بالهذيان. سمِّ بالله وكلْ».

فأطعت. وهل كان لي معدي عن الصبر؟ وجعلت في أول الأمر أتناول بحذر وتقية، وآكل على مهل وبحساب، وأمضغ مضغًا طويلًا مستأنيًا فيه. ثم أحسست وأنا ألوك أن رغبتي تشتد، وشهوتي تقوى، فعكفت على الطعام عكوف المنهوم الرَّغيب الذي لا تنتهي نفسه ولا تمتلئ عينه. وما هي إلا لحظة حتى كنت قد قششت كل ما أمامي. ثم اضطجعت وربت على بطني وحدَّثت

نفسي أن أملى لم يخب فيمن صنع بي هذا، فليتني أعرف حيلة أستبقى بها هذه المعدة لما بعد اليقظة.

وتذكرت قول ابن الرومي:

ذي معدة ثعلبها لاحس وتارة أرنبها ضاغب
تعلوه حمى شره نافضٌ لكنَّ حمى هضمه صالب

وتمنيتُ، وقد آتاني هذه المعدة الفتية، أن لو كان آتاني أيضًا عقل حدث. وأحسبه نسي أن يغير لي نفسي كما غيَّر لي جسمي، علي أني ما أظن إلا أنه لو كان فعل لما فطنت إلى أني تغيرت.

وسمعت فتاتنا تقول: «هنيئًا مريئًا يا بابا».

قلت: «شكرًا».

ووددت لو نسيت: «بابا» وذكرت اسمي.

وخطر لي أن خادمتنا الحاجة لعلها صغرت مثلي!

٤

وخرجت من الشباك العريض -أو الباب- بعد أن أُعطيت ثيابًا أخرى أرتديها. إلى شرفة رحيبة تصلح للعب وتتسع لفنون منه، وتطل على بستان زهر وثمر، تخترقه طرق ممهدة وبعضها مفروش بدقاق الحصى المصفر، وفي أرجائها المترامية ظلال من الحرور، وأكنان من القر، وبين الأفنان فواكه شتى، رأيت

فمي يتحلب عليها فيتملظ لساني وشفتاي، وإن كنت ناهضًا عن المائدة الساعة.

واشتهيت، وأنا واقف أجيل عيني في هذه الحديقة، أن تكون بين أصابعي سيجارة وأمامي فنجان من القهوة، فأترشف وأدخن وأنعم، وأني لي ذلك إلا بحيلة أحتالها؟

واتكأت على حافة الشرفة وذهبت أفكر في أمري، وتساءلت: «ترى ماذا صنع الله بإهابي الذي كنت فيه؟ بالجسم الذي كان لي؟» وقلت في جواب ذلك: إني أحسبه ما زال مطروحًا على سريره. وفزعت إذ خطر لي أنهم لعلهم وجدوه في الصباح لا حياة فيه ولا حراك به -بعد أن خرجت منه ونضوته عني- وما يدريني أنهم حينئذ لا يعدونه ميتًا فيدفن؟ إن هذه تكون إحدى المصائب الكبر، لأنه يقضي على أن أظل في هذا الإهاب الصبياني، وينتسخ كل أمل في إصلاح هذا الحال المقلوب.

وجرى ببالي أن لعل هذا هو تناسخ الأرواح الذي سمعت أن البعض قالوا أو يقولون به. ولكن التناسخ لا يجري على هذا النحو، ولا يكون -أولا ينبغي أن يكون- بنقل نفس حية من جسم إلى جسم آخر، فيه هو أيضًا نفس حية تُطرد منه، ويتطلب طردُها إحلالها محل ثالثة تُنفي هي كذلك إلى جسم رابع وهكذا وليس لهذا آخر يقف عنده وينتهي إليه، ومؤداه الفوضى العميمة.

وما ظنك بحال عالَم يمسي ناسه وهم هم، ثم يصبحون وهم غيرهم؟ ولا خير في هذا لأنه لا يعدو أن يكون مجرد تنقيل من أجسام إلى أجسام. وإنما يحصل التناسخ بعد موت الجسم، وأنا لم أمت. أو من يدري؟ لعلي مت، وانتقلت روحي أو نفسي إلى جسم هذا الصبي! ولكني لم أولد معه، بل حللت في بدنه فجأة في بعض مراحل عمره، وليس هذا بجائز فيما أرى.

ونشف ريقي وأنا أفكر في هذا ولا أهتدي، وتصببت عرقًا. وحرك النسيم الأغصان فتنبهت إلى أن هاهنا -تحت أنفي- شجرة عظيمة ذاهبة في الهواء، وفي وسعي بلا مشقة أن أتخطى الحافة إليها وأتدلى منها إلى الأرض، واستغربت أن يخطر لي خاطر هذا العبث الصبياني، وماذا أصنع إذا لقيت من لا أعرف؟ وقد يبتدرني بسؤال عن شيء أو أحد أو عن نفسي، أو يدخل معي في حديث يتناول ما أجهل. كلا... الخير كل الخير أن أبقى حيث أنا، وأن أدع من شاء يصنع بي ما يشاء حتى أهتدي إلى نفسي.

وأقبلت الخادمة -أعني الفتاة المليحة- مرة أخرى، فسألتها: «في أيِّ يوم نحن؟».

فابتسمت وهزت سبابتها في وجهي وقالت: «تتباله؟ يا مكار».

فحدثت نفسي أني لن أهتدي إلى شيء في هذه الحياة الجديدة إذا ظلَّ كل من ألقى يفترض أني أعرف ما أجهل.

وقلت أستدرجها: «إنما أريد أن أستوثق».

قالت: «لا محل للشك. هو اليوم العظيم ولا كلام».

قلت: «بل شكي عظيم. ويخيل إليَّ أن هناك خطأ كبيرًا».

قالت -وهزت رأسها-: «آه، فهمت، ولك العذر إذا اختلج في نفسك شك، فإنك مازلت صغيرًا، وصحيح أن اليوم قد يختلف فيكون السبت، مرة، والجمعة مرة؛ ولكن التاريخ ثابت. وهو الذي عليه المعول».

فقلت لنفسي: «هذه فرصة لأغتنمها» ثم لها: «مهلًا. أرجو أن تزيدي هذا إيضاحًا، فإن الأمر مختلط عليَّ قليلًا».

قالت: «حبًّا وكرامة. اليوم الجمعة، مثلًا».

فلم يعجبني قولها «مثلًا» لأنه يتركني حيث كنت، حائرًا لا أدري، وضالًا لا أهتدي فقاطعتها سائلًا: «مثلًا أو هو يوم الجمعة فعلًا؟ يجب أن يكون كل شيء واضحًا بدقة».

قالت: «هو الجمعة فعلًا».

فقلت في نفسي: إني لا أستغرب أن يحيق بي هذا في يوم جمعة، فالآن آمنت بزعم العامة أن في يوم الجمعة ساعة منحوسة، ولكني نقلت هذه النقلة ليلًا لا نهارًا؟ وما الفرق؟ إن الجمعة تبدأ بالحساب القمري من مغرب الخميس، فليلتها السوداء تبدأ حيث ينتهي نهار الخميس. وهي بالحساب الشمسي تبدأ بعد منتصف الليل، فهي الجمعة المنحوسة بنهارها وليلها على الحسابين جميعًا.

وفاتني -وأنا أفكر في هذا- بعض ما هي قائلة، فقرضت أسناني من الغيظ، والسخط على نفسي، وقلت: «معذرة. ماذا كنت تقولين؟».

فزوت وجهها وتناولت كتفي وسألتني: «ماذا جرى لك اليوم؟ واليوم على الخصوص؟ إني خائفة...».

فقلت مقاطعًا: «على الخصوص؟ وما وجه هذا الخصوص؟».

فسألتني، وهي مقطبة مضطربة: «أو نسيت هذا أيضًا؟».

قلت، وأنا أتكلف السخر: «وما فضله على الأيام؟».

قالت -وضربت كفًّا بكفٍّ-:«فضله؟ عيد ميلادك تتكلم عنه بهذه اللهجة؟».

ففهمت. هذا على الأقل، وقلت: «آه! تعنين «يوم» ميلادي الجديد؟».

قالت: «أيوه عيد ميلادك... أعني يوم عيد ميلادك... أوه لقد أعديتني فأنا أتكلم مثلك».

قلت: «الصواب أنه « يوم» ميلادي الجديد...».

قالت: «هو كذلك. يوم ميلادك الجديد».

قلت: «إنك غير فاهمة، ولا أنا فاهم إذا أردت الحقيقة».

قالت: «ماذا؟».

قلت: «لا شيء... لا شيء... ولن تفهمي إذا قلت. فدعي عنك هذا. وهاتي أنت ما عندك».

قالت: «ما لك تتكلم كأنك شيخ كبير، وأنت ما جاوزت العاشرة؟».

فحدثت نفسي أن هذا شيء آخر جديد عرفناه، وقد بقي أن نعرف من أنا. ومن هؤلاء ممن أرى ومن لا أرى، وقلت لها: «هذا إحساسي، أني شيخ، أني كبير، وإن كنت أبدو كما ترين غلامًا صغيرًا».

قالت: «كيف تقول هذا والدهر كله، مستقبلك كله، لا يزال أمامك؟».

قلت: «إلى البارحة فقط كنت قد خلفت ورائي شبابي، وفي هذا الصباح، أو في الليل فما أدري، دار الزمن -بي وحدي على ما يظهر- دورة انقلب معها الحال فصار قدامي ما كان ورائي، ماذا كنت أنت أمس؟ طفلة؟ امرأة عجوزًا؟ الحاجة زكية؟».

فلمست جبيني بكفها وسألتني: «هل أنت مريض؟ أتشعر بشيء على خلاف العادة؟».

فقلت -برغمي، وإن كنت أدرك أن هذا عبث لا طائل تحته، وقد يجر عليَّ ما لا أحمد-: «نعم أشعر، وأعرف يقينًا أن كل شيء على خلاف العادة، ولكني لست مريضًا. أوه. ما الفائدة؟ لن تفهمي. ولن تصدقي إذا فهمت...».

وأوليتها ظهري، واتجهت إلى الباب، فلما بلغته سألتها: «هل أظل محبوسًا في الغرفة والشرفة؟».

فأسرعت إليَّ، وقالت: «أنا متعجبة وخائفة، فليست هذه عادتك».

فلم أرحمها وقلت: «إن كل ما اعتدته تغير -كل شئ تغير- صدقيني وإن لم تفهمي، وقولي لي ماذا ينبغي أن أصنع الآن؟».

قالت: «أرجو إذا نزلت إلى ماما ألا تتكلم هكذا فإنه لن يسرها، وفي يوم عيدك على الخصوص... ليتني أعرف ما بك».

فرَّق لها قلبي، وهممت أن أقبلها شكرًا لها على عطفها، واندفعت يداي تريدان تطويقها، ولكني صددت نفسي، مستحييًا. وإني لغلام صغير فيما ترى، ولكن إحساسي إحساس رجل، وطاف برأسي أن هذه فرصة لي، إذا شئت اغتنمت، فلن تردني عن عناقها وتقبيلها، فما تدري إلا أني طفل، ويغنم الرجلُ الذي انطوى عليه، والذي تنكر في زيِّ غلام، حلاوة القبلة ومتعتَها. ولكني صرفت نفسي عما يغريها بذلك، وقلت لها فيها قلت أنها قد تحنو عليَّ، ويعطفها ما يعطف المرأة على الصغار، وقد تحتمل ثقل تقبيلي لها وتعلقي بعنقها، لأني صغير يُلاطف، وقد يسر الأم الكامنة في نفسها أن يلاعبها طفل. ولكنها لن تستحلي القبلة أو تستطيبها وتستمتع بها إلا من رجل، وما خير قبلة لا تبادلنيها؟ وأنفت أيضًا أن أخدعها، وإن كان ما تحولت إليه ليس من فعلي أو تدبيري.

وقلت لها: «ألا ترافقينني إلى حيث ماما؟».

فابتسمت وقالت: «كأنك لا تعرف طريقك، إن كل أحوالك اليوم غريبة. كلا. لا أستطيع مرافقتك، فإن عملي هنا، وهو كثير، كما تعلم».

فتوكلت على الله، فما بقيت لي حيلة إلا أن أقذف بنفسي على المجهول.

٥

ورأيت سلمًا عريضًا درابزونه من الخشب المصقول، ودرجاته مكسوة ببساط، فقلت في نفسي: إن هذا قصر على ما يظهر. فلماذا يا ترى آثرو الأرض غرفتي العرى وقد كسوا السلم؟ وهبطت على مهل، درجة درجة، ونفسي تحدثني أن أركب الدرابزون فأنزل عليه! وكنت لا أنفك أتلفت في كل ناحية ولكني لم ألق أحدًا، فاستوحشتُ من هذا السكون، ولما بلغت آخر درجة نظرت فإذا أمامي بهو أوسع من دهليز، وفيه مقاعد قليلة، وعلى جدرانه صور شمسية لم أستبعد أن تكون لبعض «أهلي» فصعدت طرفي إليها ولكنها كانت عالية، والبهو مظلم. وأبصرت بابًا مواربًا إلى يساري فنظرت منه ولم تكن بي حاجة إلى انحناء فإنَّ قامتي الجديدة ليست مديدة، وأنا لا أنظر من ثقب المفتاح بل من فرجة الباب المواربة، ومع ذلك انحنيت كأني ما زلت أنا. وأُنسيت أني قد صرت هذا الذي لا أعرف من هو، فأخذت عيني سيدة كدت أهجم عليها حين وقع عليها بصري فقد كانت هي زوجتي بعينها، ولكن شيئًا في جلستها، وهيئتها، وثيابها، ردَّني وكبحني عن الاندفاع، فقد كانت إحدى ساقيها ملتفة بالأخرى، ولا أعرف زوجتي تفعل ذلك، وكانت في حجرها كرة من الخيط وفي يديها مسلتان تنسج بهما الخيط، مداولة، على مقدار، وامرأتي لا ترى أن

تشتغل بهذا عن معابثتي، وهذه ثوبها معرج وبين خطوطه المتلوية ترابيع بيض وحمر، وامرأتي تؤثر ما لا وشى فيه ولا تخطيط. وهذه شعرها فينان مفروق من الوسط ومرسل إلى الخلف، وفي شعر امرأتي شيء من التحجن، وهي ترفعه فوق الجبين وتلويه، وتثبته بما يمسكه. وخطر لي أن لعل هذه هي «ماما» وخفت ألا تكون، وحرت ماذا أصنع وكيف أخاطبها. وأخيرًا، وبعد تردد، قلت: الرأي أن أدبدب وأحدث صوتًا وضجة، حتى إذا التفتت وتكلمت ورجوت أن أعرف من تكون، والله المعين.

وخبطت الباب، ودبدبت، وتقلبت أيضًا على البساط الوثير، وما كان ظني أن أحسن هذا، ولا كنت أنويه أو أفكر فيه، ولكني دُفعت إليه دفعًا، وأغرتني به وزينته لي -فيما أظن- طبيعة هذا الجسم الصبياني، فلما عاد رأسي إلى مكانه، واستقرت قدماي مرة أخرى على البساط، رأيت هذه التي ما شككت أنها امرأتي تنظر إلى راضية مغتبطة وسمعتها تقول: «آه. سونه. عيد سعيد يا سونه. تعال هات بوسه».

فقلت لنفسي وأنا أخطو إليها وأمط بوزي، وأداني ما بين جفوني، وأهز ساعدي هزًّا قويًّا: إن اسمك يا هذا «سونه» وقد عرفناه، أو عرفنا ما يكفي. وقد يكون الاسم الكامل «حسونة» أو «حسني» أو «محسن» أو «حسن» أو «حسين» أو غير ذلك مما يمكن أن يتألف من الحاء والسين والنون. أو من يدري؟ فقد لا تكون فيه حاء، ولكن شيئًا خير من لا شيء. ولست أتوقع أن

أتلقى كتبًا بالبريد، وإن كان هذا متحملًا في يوم عيدي السعيد، ولكني أحسبهم سيجمعون ما يرد من التهنئات -إذا ورد شيء- ويحملونه إليَّ جملة، فلا خوف إذن، وسنعرف ما نجهل متى آن الأوان.

ولما صرت على أشبار منها نططت فإذا أنا في حجرها، وذراعاي حول عنقها وفمي على خدها، فقبلت رأسي وما بين عيني، وخدي، وقرصت وجنتي قرص مداعبة لا قرص إيجاع «وقد أسلفت أنهما منتفختان قليلًا، فهما يغريان بالقرص» ثم عاودني الحياء فنهضت ومشيت مطرقًا إلى مقعد كبير منجد، فانحططت عليه وذهبت أحرك ساقي وأحك بقدمي ما يليهما من البساط، وذراعاى على المسندين.

وقالت -ويداها لا تكفان عن النسج-: «سيتغدى عمك معنا، وقد سبقته هديته إليك».

فهممت أن أشيل نفسي عن المقعد. فأشارت إليَّ تردني عن ذلك وقالت: «لا تعجل في المساء بعد اكتمال الجمع، نفتح الهدايا. تعلَّم الصبر».

وكان لا بد أن أقول شيئًا فسألتها: «ولكن ألا يمكن أن أعرف الهدية ما هي؟ باللسان فقط».

قالت: «إن الله مع الصابرين. كل شيء في وقته».

فأسبلت أمري إلى الله، وهززت رأسي وكتفي، وقمت فسألتني: «إلى أين؟».

قلت: «سأتمشى في الحديقة».

قالت: «لا توسخ ثيابك، ليس في هذا اليوم».

فقلت في نفسي: «يا له من يوم».

أتعرف ذلك الصندوق الذي يضعه بعضهم لبريده على بابه، وفي أسفله رقعتان كتب على إحداهما «موجود» وعلى الأخرى «غير موجود» ولا تبدو واحدة إلا بحجب الأخرى؟ كان هذا حالي فيما أُحس. فأنا تارة أفكر بعقلي القديم الذي كان لي في صورتي السابقة، وأصدر فيما أعمل عن وحيه. ثم ينحى هذا العقل، أو يطرح في زاوية أو ركن، أو يحجبه حاجب، ويظهر العقل الجديد الذي يلائم حال الطفولة التي رُددت إليها، وهكذا دواليك.

وهذه السيدة التي رأيتها جالسة تنسج، بدت لي في أول الأمر زوجة، فدار في نفسي لها ما يدور في نفس الرجل لامرأته، ثم إذ بشيء يحجب هذه الناحية من إدراكي، أو يغلق طاقة ويفتح أخرى، فأرتد غلامًا ينط ويلعب، ويرتمي على حجر السيدة، ويكون معها كما يكون الولد مع أمه، ويفرح بلعبة أو هدية، ولا يطيق الصبر على تركها إلى المساء.

ولم أكد أقول إني خارج إلى الحديقة حتى عاد عقلي القديم موجودًا، فرحت أفكر في المخرج وأحذر أن تبدو على الحيرة، وأتظاهر بأني أتلكأ وأنا أجوب الحجرات وأفتح بابًا وأغلق بابًا، حتى وفقني الله. وكان الخدم كثيرين -رجالًا ونساء- ولا عجب أن يكثروا في بيت طويل عريض كهذا، ولكن العجب أن

تطيق العيش فيه هذه السيدة المزدوجة الشخصية التي أراها تارة أُمًّا، وتارة زوجة، وهي مستفردة فيه ولا أنيس لها ولا جليس من إنسان أو كلب، ولكن عجبي لم يطل، فإن الأوضاع كلها مقلوبة.

وانطلقت أفكر وأنا أتمشى في الحديقة، وأعجب تارة بألوان الزهر على أغصانه، وأنزع غلائله طورًا وأفركها بأصابعي، ولا أبالي جمالها ولا أرحم رقتها أقول: إني ذهبت أفكر في هذا الحداثة التي يقول الكبار وأنا منهم أو كنت منهم إنها أحلى وأسعد وأرغد أيام الحياة، ومع ذلك أراني ناسيًا كيف كنت إذ أنا صبي، وماذا بلغ من استمتاعي بذلك الرغد الذي تنحسر عليه، بل أنا قد قضيت معظم الساعة أو الساعتين اللتين عدت فيهما حدثًا في استثقال هذه الطفولة والضجر منها والتبرم بها. أم ترى ذلك لأني لست طفلًا صرفًا؟

وهذا العم الذي سيشق الأرض ويخرج لي من جوفها كالجني، كيف هو يا ترى؟ قد عرفت الأم وأحسست لها في قلبي رقة لأنها تشبه زوجتي (التي لا يخلو قلبي من الموجدة عليها لكثرة معابثتها لي وحضها الولدين الشقيين على كيدي). وبقي أن نعرف العم الذي لم يكن لنا في حساب؛ أطويل هو أم قصير؟ وثقيل أم خفيف ظريف؟ ووددتُ لو أن أمي أرتني هديته لأعرف ذوقه ورأيه في ابن أخيه من اختياره.

وإني لأدفع حصاة برجلي، وإذا بصوت يقول: «هش». فالتفت إلى مصدره فإذا رجل في سراويل إلى نصف الفخذ كالتي يلبسها لاعب الكرة أو

المصارعون، وتكتها طويلة غليظة كحبل الشراع إلا أنها ملوية، وطرفاها يتدليان من عقدتها إلى قريب من الركبة، وعلى صدره قميص أو قطعة منه، وفوق رأسه قبعة قديمة، وقدماه في حذاءين باليين عليهما طوائف شتى من الأوحال جفَّ بعضها ومازالت بقيتها طرية، فأدركت أنه البستاني أو بعض أعوانه، فما يقوم على خدمة هذه الحديقة الواسعة الحافلة بصنوف الزهر والشجر رجل واحد.

واقتربت منه فقال: «سمعت أن البك مشرفنا اليوم».

قلت: «البك؟».

قال: «البك عمك».

قلت: «آه».

قال مستفسرًا، وفي عينيه التماع خبيث: «العادة يا سعادة؟».

فلم أفهم، ولي العذر، وبدا لي أنَّ خير ما أصنع هو أن أوافقه، وليكن ما شاء الله أن يكون، وهززت له رأسي أن: « نعم» وتبسمت. فقال: «عال. قبل الظهر تكون الأمانة تحت السرير».

فشكرته وودت لو كان معي مال لأنفحه منه بشيء، وتساءلت في سري: «أليس لي «اعتماد» مفتوح في ميزانية هذا القصر أُنفق منه كغيري من الغلمان، مصروف لجيبي كما يسمونه؟».

ورأيته يتراجع في حذر ويتوارى وراء جذع شجرة كالقطة أبصرتْ كلبًا يدلف إليها، فتلفت إلى حيث كانت عينه تنظر، فإذا الفتاة الخادمة، فلم أكترث لها، وهممتُ أن أمضي في طريقي، وخطر لي أن ليتها ترافقني فإنها جميلة وضاءة المحيا، وخليق بالتنزه معها في هذه الحديقة أن يفيد الرجل المضمر في هذا الإهاب الصبياني، متعة.

ولكنها لم ترافقني بل دعتني إليها بإشارة من كفها، فذهبت إليها أعدو، فانحنت عليَّ، وقالت بصوت كالهمس: «لقد رأتك ماما من الشباك واقفًا مع «عم أحمد» الجناينى، فكلفتني أن أقول لك: إنه لا يليق بك أن تحادث مثله».

فدهش شِقِّي المستور، وسألها بلسان الغلام: «وما عيبه؟ أليس من خلق الله مثلي ومثلك؟ ما هذه الغطرسة؟».

فباستني خطفًا كما يشرب الطائر، يحسو حسوة ويرفع منقاره، أو رأسه الصغير ويلتفت كأنما يخاف عواقب الطمع أو مطاوعة النفس، فقلت في سري: لا بد أن تكون هذه الأم التي استظرفتها، ثقيلة غليظة الكبد، ومتنطعة سخيفة الرأي.

وأحسبُ أن وجهي ارتسم عليه ما يضطرب به صدري فقد قالت الفتاة: «إنما تخشى أن توسخ ثيابك في يوم عيدك. ثم إن ماما هي ماما ويجب أن نطيعها».

فقلت: «لا تعتذري عنها، وقولي لها: إني سأكلم وأخالط من أشاء. بل قولي لها: إني سأتمرغ في التراب، وأتقلب في الوحل، وأجرح جلدي بالشوك وأمزقه. ولتفعل ما بدا لها».

وانكفأت عنها أعدو في الحديقة، وتمنيتُ لو أن في وسعي أن أسلخ هذا الجدل كله كما تسلخ الشاة، واستثقلت هذه الطفولة التي تحاط من كل ناحية بالسدود والحواجز والعُقَل والموانع، كأنما لا يكفيها أن لها من طبيعتها حدودًا، ولا يسمع فيها من يقضى عليه بها إلا «إياك» و«حاذر». وآليت لأؤدبن هذه الأم غير هذا الأدب، أو تظنني طفلًا حقيقيًّا؟ سنرى ونريها.

ودرتُ أبحث عن «عم أحمد» الجناينى وأستعجله ما وعد، فقد كبر في ظني أن يكون ما وعدنيه وسيلة لركوب العم المنتظر البك، فقد صار لنا بيك من الأعمام بشيء من العبث، وحدَّثت نفسي أن هذه الأم إلى الآن أولى، ولا مانع فيما أرجو من قسمة الأمر بينهما نصفين.

ولكني لم أجد الرجل، فقد شقَّ الأرض وغاب فيها، كما شقها وبرز منها.

٦

وأخيرًا جاء العمُّ، وتلقيت قبلاته، وقاك الله السوء!

وهو شيء كل ما فيه ثقيل، تنفسه حشرجة، وصوته ضوضأة، وضحكه قرقعة، وقبلته كمصِّ الماء من كوز نصفان، وكرشه برج دبابة، وشعران شاربيه

فتلات حبل مقروضة، وعينه -والعياذ بالله- شفر متفتل، وجفن محمر لا هدب له، وماء يسيل، وحاجباه شعرهما رقيق من أخر، وكثيف من قدم، وأذنه مسترخية من رأسها ومنكسرة على وجهها كأذن الكلب، ورأسه على شكل البيضة، وقد ذهب أكثر شعره، وبقيتْ له طرة شعراتها متفرقة صلبة كأنها الشوك.

وما كدتُ أراه حتى قلت: بل هو أولى بكل ما يهيئ له هذا الجنايني الطيب العم أحمد، قوَّاه الله ووفقه! وتمنيت أن يجيئني بثعابين أو ثلاثة، أدس منها اثنين في كميه -أعني عمي- وألفُّ الثالث حول عنقه الغيط المقبل إلى صدره المنتفخ.

وكان يأبى إلا أن يجلسني على ركبته، ولا أكاد أفعل حتى تدفعني كرشه وتدحرجني، فيقهقه ويطخطخ، فيبح، ويسعل سعالًا مشقوق الصوت، ويسيل لعابه على ذقنه، ويمسك جنبيه بيديه، كأنما يجد فيهما وخزًا، ولا يخطر له أن يخرج منديلًا يستر به هذا الفم الأفوه الذي كأنه باب كهف، وما فيه من لثة ذابلة، وأسنان مسودة، سفلاها خارجة من الحنك وعلياها متقاعسة.

وكنتُ شديد الشوق إلى تلقى ما وعدني العم أحمد، والتلهف عليه، فأنا لا أستقر، ولا أسكن، ولا أزال أنفر من هذا العم الذي رُميت به من حيث لا أحتسب، وأمي تدعوني بغمز العين أو إشارة اليد إلى المراضاة، فلا يزيدني هذا إلا تقطيبًا، وجفوة وسوء الخلق، وهو لا يفطن إلى ما بي منه أو لا يحفله، ولا

يكف عن «ملاطفتي» ومازحتي، ممازحة الفيل للقط، كأنه موكل برياضتي على احتمال المكاره!

وبعد لأي ما استطعت أن أفر من هذه الغرفة، فأسرعت إلى غرفتي، وأطللت على الحديقة من الشرفة فلم أجد أحدًا، وخفتُ إذا أنا بقيت هنا، وأن يصعد العم إليَّ، فيفسد التدبير كله ويحبط، فعدتُ من حيث أتيتُ، وجعلتُ أمشي على أطراف أصابعي، وفي مرجوى أن يكون قد غلبه النعاس فأنجو على حين، فإن مثله، في مثل ضخامته، ينام ولو كان على ظهر فرس جامح.

وبلغتُ الباب. ولم يكن مفتوحًا كل الفتح، فاستوقفني ما سمعت. فبقيت حيث أنا. أتسمع. فسمعت أمي تقول: «إنه عنيد مثل...».

وسمعتُ عمي يقول: «قوليها... مثل أبيه.. تماما. ولكن المسألة أننا جميعًا، وأنا وأنت في الطليعة، نخضع لسلطانه كأنه ملك ذو صولجان، حتى في حياة أبيه، وأيام كان لا يزال رضيعًا، كانت جباهنا تعنو لأصابعه الصغيرة إلتي يطبقها على شاربي ويشد هأ هأ هأ».

فقالت أمي وهي تتنهد: «تالله ما كان أحلى هذه الأصابع الحمراء، وأحسب أنَّا قد دللناه وأفسدناه».

فقال: «من المسئول عن ذلك؟ هه؟ من الذي كان يغضي عن كل ما يفعل؟ من التي كانت إذا رأتني أنهره وأزجره تدور من ورائي وتحمل إليه ملء سلة كبيرة من الحلوى والفواكه؟».

فصاحت به أمي: «أنت كنت تنهره؟ أنت؟ صحيح، ولكن بصوت رقيق لين. كما يناغي ذكر الحمام أُنثاه، وإذا رأيته يبكي زويت وجهك وعبست جاهدًا؛ لتخفي الدموع التي تترقرق في عينك. ثم تحمله وتوسعه تقبيلًا».

فاستغربت أن ينطوي هذا الفيل الضخم على كل هذه الرقة، ولكني ما عرفته إلا اليوم فلي العذر واضحًا، وماذا تقول العامة؟ من لا يعرفك فهو يجهلك. صدقوا والله. وسرني أن يكون في هذه الكرش العظيمة شيء غير المعدة والأحشاء. وصارت المسألة عند هي: هل أمضي فيما انتويت من معابثته بمعاونة العم أحمد الجنايني بما لا أعلم؟ وزهدني في ذلك أن قلبه كبير، وأغراني به طمعي الجديد في حلمه وحبه. وخُيِّل إليَّ وأنا بين هذه الدوافع والجواذب، كأني مشدود إلى حصانين يجريان في اتجاهين مختلفين، وأحسستُ كأن ساعة انقضت في هذا التردد، وأشفقت أن يضيع الوقت سُدى، فتفلت الفرصة وتذهب إلى غير رجعة، وتأدي إليَّ صوت هذا العم الفاضل الطيب يقول: «إنك تعلمين يا فيفي ما أنطوى عليه لك من زمان طويل».

فقلت في سري وأذني مع ذلك مرهفة للتسمع: آه لقد عرفنا اسمك يا ماما ولم يسعني إلا أن أتعجب لأهل هذا البيت الرحيب الذي يتسع «للتكبير» إلى أقصى حد وأبعد مدى، لماذا يحتاجون أن ليجأوا إلى «التصغير» فيه؟ فأنا «سونه» والله أعلم بالأصل المستكثر عليَّ. وأمي «فيفي» ولست أستغرب أن يكون ما يدعى به الآخرون ممن رأيت وممن لم أر «توتو» و«لولو» و«توحه» و«كوكو».

وتذكرت بيتًا نزلت فيه ضيفًا -قبل أن أصغر- مع ستة غيري من الإخوان. وكان صاحبه ممن لا يحتاج ابن الرومي أن يتعجب لهم كيف أخطأهم الجسم، فأرقدنا في حجرة كالهيكل، رصَّ لنا فيها سبعة أسرة غير الخزانات والمناضد والكراسي، وكانت تبدو لنا مع ذلك فارغة. وكان الواحد من يستطيع أن ينام على سريره طولًا أو عرضًا كما يشاء من فرط سعته. وأصبحت فقصدت إلى الحمام فإذا هو يصلح أن يكون ميدانًا للركض أو ساحة للرقص. ولما صرت في الحوض خُيِّل لي أنه حوض سباحة، وأني فيه سمكة من «البساريا» في مجرى النيل العظيم، وأشفقتُ أن أغرق وصحت أطلب النجدة، وتوقعت أن يجيء مضيفي بدلو عظيم يلقى بها إليَّ، فأصعد فيها، أو يدلي لي حبلًا أشد به وسطي ويرفعني فأخرج إلى الشط. وقلت لمضيفي لما نجوت: «لم لا تؤجر هذا الحوض للأسطول البريطاني فيتخذه قاعدة له؟». على أن هذا كان منى ظلمًا له، فما عدا الرجل أن شيد بيته وفصله على قده. فلا وجه للوم أو السخرية.

وهنا تجرى الأمور على نقيض ما ينبغي، فيصغرون الكبير حتى ليمسخون الرجل ذا الشاربين المفتولين واللحية الكثة التي يضنيه حلقها كل صباح، فيجعلون منه غلامًا أمرد.

وصرفني عن الاسترسال في هذه الخواطر كلام آخر سمعته كان له وقع اللطمة القوية، فقد كان العم يقول:

«وما قولك في أن نجعل هذا العيد مزدوجًا؟ إنك تعلمين أني أنا وأخي عليه رحمة الله أحببناك وتنافسنا عليك. وقد آثرته عليَّ واخترته دوني، فنزلتُ على حكمك، وكنت على حق. فإنه كان خيرًا مني. ثم اختاره الله إلى جواره، فأكرمتك ونزهتك عن الإلحاح عليك بحبي لك، وتركت لك هذه المهلة الطويلة، سبع سنوات كاملة، وأحسب أن في سبع سنوات من الترمل الكفاية، ثم إن سونه يحتاج إلى عنايتنا ورعايتنا وتعهدنا معًا، وأنتِ وحدك لا تقدرين على شيء....».

ولم أطق أن أسمع غير ذلك. هذا العم الذي راجعت نفسي في أمره وأقنعتها بأنه رجل طيب كبير القلب، لم تخطئ فراستي فيه أول ما وقعت عيني على دمامته المجسدة! وهو الآن يراود أمي! بل زوجتي. أي نعم زوجتي التي يموهها الحلم ويزورها، ويلقي في حجرها صوفًا تنسجه، ليوهمني أنها غيرها وأنها أمي! فيا له -الرجل، لا الحلم- من سفيه مستهتر، ومتهتك سادر لا يُبالي أن يخطف زوجات الرجال وهم ينظرون أو يسمعون، وما أراه يريد أن يتزوجها إلا على مالها، فإنها تبدو ذات ثراء، بل هي كذلك بلا مراء. ويزعم الخبيث المحتال أنه إنما يفعل ذلك رقة على ولدها -الذي هو أنا فيما يتوهم وتتوهم معه- وليقوم حضرته بأمري. بففف! ولم تبق عندي ذرة من الشك فيما صار أهلًا له وآليت لأكونن أبغض الناس إليه، وأثقلهم عليه، ولأوقدن له نارًا تزغرد شعاليلها، ويسطع مريجها، ويضرب لظاها عليه، مثل الخباء. وكلما تفرق

عنها ما يسعرها، أو خبا شواظها، حششت لها حتى تعود ذات معمعة وقرقعة كضحكته الثقيلة، وحينئذ نرى أيهما يطيب له الزواج أم الفرار.

٧

وانكفأت إلى غرفتي، وأوصدت بابها، وتذكرت أني فعلت ذلك البارحة طلبًا للنجاة من عبث الولدين -ترى كيف هما الآن؟- وأمهما، فصرتُ إلى هذا الحال المقلوب أنا الرجل الكبير ارتددتُ غلامًا صغيرًا، و زوجتي انقلبت أمًّا لي يخطبها لنفسه عم وقح لا يبالي أن لها بعلًا متنكرًا -بكرهه- في هذا الإهاب الذي جمعت وضم بعضي إلي بعضي وحشرت فيه، والولدان الحبيبان على الرغم من العفرتة والشيطنة ماذا أصلبها يا ترى؟

وقطعت بضعة فراسخ في هذه الغرفة الصغيرة، بين جيئة وذهوب، ثم انحططت على السرير من التعب والملل، وإذا بباب الشباك يفتح على مهل وبحذر، والعم أحمد الجنايني يدخل من الفرجة برأسه أولًا، ورأى أن ليس معي غيري فاطمأن ودخلت بقيته، فبادرته أساله: «بماذا جئتني؟».

قال: «بجماعة من النمل».

قلت: «نمل؟ وما خير النمل؟ ماذا أصنع به؟».

قال: «إن له لقرصًا كلسع النار وكيتها. ثم إنه ما تطلب في كل مرة».

قلت: «ألم يكن يسعك أن تأتي ببضعة قنافذ حديدة الشوك، أو بما هو خير عقارب شائلة الأذناب، أو أفعوان خبيث، أو طائفة من الحيات؟».

فبُهتُ الرجل، وتلعثم، ولم يعد يدري ماذا يقول؟

ورميت إليه كيس النمل وقلت: «خذ، خذ. لقد خيبت أملي».

فقال -وهو يحاول أن يتألفني من نفرتي-: «يعز عليَّ أن أخيب لك أملًا يا سيدي؛ ولكن هذا ما اعتدت أن تطلب دائمًا، على أني أستطيع أن أجمع لك قليلًا من الضفادع، إذا أمهلتني ساعة أو نحوها».

فلوحت بيدي وقلت يائسًا: «ضفادع ونمل؟ ما هذا الكلام الفارغ؟ إن هاهنا جريمة يوشك أن تُرتكب، ولا يجدي في منعها ضفدع أو نملة. كلا. لا أقل من أفعوان كبير، أو لعل العقارب تكفي، وعسى أن يكون أمرها أسهل».

فقال: «يا سيدي ماذا جرى لك؟ أي جريمة؟ هل أنت مريض؟».

وهمَّ بالدنو مني وجسَّني، فتراجعتُ وأشرتُ إليه: أن خلك حيث أنت. وقلتُ بلهجة مرة: «هل أنا مريض؟ لا أسمع غير هذا السؤال كلما عجز الناس أن يفهموا عني. كلا لستُ مريضًا، ولم أمرض قط، وليس في نيتي أن أمرض إذا كان يسرك أن تعرف هذا، فاذهب وهات العقارب، وإلا فهذا آخر العهد بيننا، وخذ هذا النمل معك، فما بي إليه حاجة، وما غناء نملة صغيرة يدوس الواحد منا ملايين منها ولا يحس أنه شيئًا؟ أو خله هنا، اتركه فقد ينفع الصغير من النمل في الصغير من الأمور».

وذهب الرجل يبحث عن العقارب أو لا يبحث، فما عاد إليَّ في نهاره، ولا رأيت وجهه إلا بعد العشاء لما.... ولكن هذا سيجيء في أوانه. فلا داعي لتقديمه.

وطال انتظاري، سنة أو سنتين، فيما أحبس، وما مضت إلا دقائق إذا صدقت الساعة الموضوعة قريبًا من السرير. وضاق صدري ففتحتُ الباب وخرجت إلى الردهة، فرأيت الفتاة المعهودة تهمُّ بدخول غرفة أخرى، فقلت: «سسسس...».

فتنبهتْ وارتدتْ إليَّ، وقالت بابتسام:

«أليس لي اسم يا بابا؟».

قلت: «معذرة فقد نسيتُ».

قالت: « نسيت اسمي؟».

قلت: «نسيتُ أن أدعوك به».

وأردتُ أن أعدل بها عن هذا فسألتها: «غرفة من هذه؟ أعني لماذا تدخلينها الآن؟».

قالت: «غريب. أنسيتَ أيضًا أن عمك يستريح قليلًا بعد الغداء؟».

قلتُ، وقد خطر لي خاطر: «كلا، لم أنس، ولكني أريد أن أكلمك، فهل أستطيع أن أحدثك في غرفة... عمي؟».

قالت: «طبعًا، تعال...».

وتناولت ذراعي، فقلتُ لها وأنا أقاوم شدها: «اسبقيني وسألحق بك».

ففعلت، ودخلت الغرفة، وحملتُ كيس النمل ودسسته في جيبي.

ولما لحقت بها رأيتها تخرج من الخزانة منامة كبيرة تتسع لثور، وتطرحها على السرير وتضع على الأرض قريبًا منه، صندلًا وقبقابًا، كبيرين كما لا أحتاج أن أقول. ولم أسألها لماذا هذان؛ فقد أدركت بذكائي، أن الصندل ليتبختر به في الغرفة، والقبقاب ليدخل به الحمام. فيا له من تزيد...!

وأردتُ أن أصرفها فقلت: «ألم تنسي شيئًا؟».

قالت: «ماذا؟».

قلت: «إنه أكول، والجو حارٌّ، وسيظمأ، فأين الماء البارد؟».

قالت: «إنك تمزح».

قلت: « لا أبدًا، إني جاد جدًّا».

قالت: «ما عليه إلا أن يدق الجرس فنحمل إليه ما يريد».

قلت: «ولماذا لا تعفين نفسك من رؤية وجهه الغليظ؟».

قالت: «أراك اليوم ساخطًا عليه، فهل أغضبك منه شيء؟».

قلت: «كل شيء يسخطني عليه». واندفعت فقلت: «لقد سمعته يغري...! أمي بأن تتزوجه...».

قالت: «لا ؟» غير مصدقة.

قلت: «نعم. سمعته بأذني هذه» وشددتها بأصبعين على سبيل التأكيد.

قالت: « وهل.. هل قبلت؟».

قلت: «أخشى».

قالت: «يا للمصيبة. بعد سيدي تتزوج هذا...».

فقبلتها، فما كان يسعني غير ذلك. ولكنها كانت قُبلة شكر واغتباط، لا قبلة.... كلا وأقسم! وقلت لها: «لم يخب ظني. أنت أجمل فتاة، وأطيب فتاة، وأشرف فتاة رأيتها في حياتي الطويلة -فتبسمت راضية ومستغربة- والآن يجب أن نقصي هذا المحتال المخادع عن البيت، فإن أمي صغيرة ساذجة -فكادت الابتسامة تصبح ضحكًا- فما قولك؟ لقد أطلعتك على السِّرِّ، ووافقتني على أنه رهيب، فلا ينبغي أن تخذليني...».

فقعدت على كرسي وقالت وهي تحدق في وجهي: «لا أدري، إني في حيرة، أنظر إليك فأراك صغيرًا، وأسمع منك مثل كلام الكبار».

وهزت رأسها، وطأطأته، فدنوتُ منها وأرحتُ يدي على كتفها وقلت: «آه! هذه سرٌّ آخر أشعر أن في وسعي أن أأتمنك عليه، ولكني أخشى ألا تفهمي، أو لا تصدقي، أو تظني أني جننتُ».

فرفعتْ رأسها وزوت ما بين عينيها النجلاوين وقالت: «سرٌّ؟ أيُّ سرٍّ؟ لقد كثرت الأسرار اليوم».

فنازعتني نفسي أن أبيحها إيَّاه، وأن أقول بشجوى، وأطرح عن صدري هذا العبء الثقيل وأشركها في أمري، لعلها تستطيع أن تعينني، أو لا تستطيع،

ولكني أنا خليق أن أستريح بعد البثّ، ولكني كنت أشفقُ أن تظنَّ بي الخبل، أو تعد الأمر كله هذيان غلام يجمح به خياله الطائش، فقلت أخطو بحذر.

وسألتها: «هل تصدقين أني لا أعرف من أنت ولا ما اسمك لأني ما رأيتك إلا اليوم؟».

وما كدت أقول ذلك حتى عضضتُ شفتي، فقد أدركت بعد الأوان أني بدأت من حيث كان ينبغي أن أنتهي، فلا عجب إذا كانت قد وثبت إلى قدميها، وتناولت كتفي وهزتني بعنف وسألت: «إيه؟ لا تعرفني؟ لم ترني من قبل؟ ماذا أصابك اليوم؟ إنك من أول النهار حالك حال لم أعهده منك، فماذا جرى لك؟ قل لي؟».

فنحيتُ يديها عني، وتحسست رقبتي التي كادت تنخلع وقلت:

«ألم أقل لك؟ كلا! لا يمكن أن تفهمي أو تصدقي، فلأقصر فإنه أرشد، وخلنا في عمي وأمي». وضحكت. «لم يكن ينقضي إلا أم وعم يسقطان عليَّ من السماء، ويتم بهما...». ولم أتمها فقد صاحت بي: «ماذا تقول؟».

فانفجرتُ، وقد نفد صبري، وصحتُ، كما تصيح: «أقول إني لستُ هذا الغلام الذي تسمونه «سونه» وما كنت أعرف أن هذا اسمه إلا بعد أن نادتني به أمي... وهي أيضًا ليست أمي بل زوجتي... قولي ما شئت وظني بعقلي الظنون، فما عدت أُبالي ولكنها الحقيقة، والحقيقة أيضًا أن هذا العجل السمين الذي تظنونه عمي، ليس عمي، فما لي أعمام...».

وأمسكتُ -اضطررتُ أن أمسك- فقد سقطتْ على الأرض مغشيًّا عليها! لم تقل شيئًا، ولم تصرخ، بل هوتْ، كما يهوي الثوب الفارغ، فاضطربتُ، وتلفتُ، وأشفقتُ أن أستنجد بأحد فتحدثهم بما سمعتْ، فيحملوني إلى مستشفى الأمراض العقلية، ولمحتُ زجاجة كولونيا فخطفتها وصببتُ منها على وجهها، وعلى كفي وأنشقتها، وجعلتُ أضرب لها وجهها حتى فتحتْ عينيها ثم جلستْ، وقالت وهي تفرك عينيها: «يا له من حلم!». وتنبهت إلى وجودي فسألتني «سونه، ماذا جرى لي؟».

قلت: «لا شيء. رأيتك تترنحين كالسكري ثم تسقطين». وحدثت نفسي أن خير ما أصنع هو أن أشجعها على الظن بأنها كانت تحلم، وأنها سمعت ما سمعت في غيبوبة لا مني.

وسألتني: «هل كنت تقول لي شيئًا؟».

قلت: « نعم، كنتُ أسر إليك...».

فصاحتْ بي وكفها على جبينها: «لا لا، لا تفعل... يكفي يكفي...».

قلت: «ولكنك كنت موافقة على أن هذا الزواج لا يجوز ويجب أن يحال دونه؟».

قالت: « إيه؟ زواج؟».

قلت: «نعم. هل نسيت ما حدثتك به من أن عمي يريد أن يتزوج أمي؟».

قالت: « آه. صحيح... و و....».

قلت: «وكنا نتشاور في الوسيلة لمنع ذلك، وإذا بك يغشى عليك».

قالت: «أهذا كل ما كان؟».

قلت: «كله».

فتنهدت، وقالت: «الحمد لله. ولكنه حلم لن أنساه. ما أفظعه!».

قلت: «ماذا رأيت فيه؟».

قالت، وهي تنهض إلى قدميها: «لا لا لا... لا أستطيع، أووف يا حفيظ يا رب!».

وسحبتني معها وخرجتْ بي من الغرفة.

وهكذا ضاعتْ الفرصة، وعدتُ بالنمل مدسوسًا في جيبي كما جئت.

ورجعتُ إلى غرفتي، وعضني الجوع، ولم أجد شيئًا يؤكل. فاستلقيت على السرير فأغفيت، ورأيت فيما يرى النائم أني صبي صغير من خشب، وأني أرتدي ثيابًا من ورق، وعلى رأسي طربوش أسمر من لباب الخبز، فأخوف ما أخاف النار والفيران، وبصرتُ بملعب على بابه رجل ينقر على طبلة بعصوين ويدعو الناس أن يدخلوا، فتسللتُ من بين الأرجل، وإذا على المسرح صبيان مثلي من خشب يرقصون، فما إن رأوني حتى كفُّوا عن الرقص وصاحوا جميعًا: «هذا أخونا التائه قد رُدَّ إلينا». ودعوني إليهم فقفزتُ فإذا أنا على صلعة رئيس الجوقة التي تعزف، وقفزتُ مرة أخرى فإذا أنا معهم، فأقبلوا عليَّ يحيونني ويعانقونني. ودخل علينا عملاق يشبه عمي، نهرنا وزجرنا عن العناق وساقنا

أمامه. وإذا نحن في المطبخ، وإذا كبش عظيم يُشوى على النار، وانطرح العملاق على كرسي ونفخ نفختين ثم قال: «النار تكاد تخبو وتهمد، وعشائي لم ينضج، فتعال أنت -وأشار إليَّ- لألقي بك عليها فتذكو».

فجعلتُ أتوسل إليه وأقول: إني يتيم ولا أريد أن أموت. فعطس فقلت: «يرحمك الله». ودنا مني أخ من خشب خُيِّل إليَّ أن فيه مشابه من أحد ولدي وهنأني بالنجاة، وقال: إن صاحبنا يعطس إذا رقَّ قلبه وأدركه العطف. وسمعت العملاق يصيح مرة أخرى: «ولكني لن أتعشى إذا تركت النار تخبو، فتعال أنت». وأشار إلى الأخ الذي يشبه ابني، فبكى، وبكيتُ، ثم رفعتُ رأسي وقلت: «كلا. إذا كان لا بد من إلقاء أحدنا على النار فأنا أولى». فعطس العملاق عطستين، فتبادلنا التهنئات، ونظر إليَّ وقال: «تعال أقبلك». ففزت حتى صارت قدماي على لحيته، فضمني إليه بإصبع، ثم حطني على الأرض وقال: «كنت أرجو أن أُنعم شيه، ولكنه لم يبق لي مفر من أكله ملهوجًا... لا بأس لا بأس».

فأقبل بعضنا على بعض يعانقه ويهنئه. والعملاق يهبر ويلقي في فهمه ولا يلقي إلينا عظمة، فالتهبت جوعًا وتلوت أمعائي، وذهبت عيناي في رأسي واسترخيت فانحنى ظهري، وصر، ورثيت لنفسي، وانهملت دموعي كالخيط المتصل، وأحاط بي إخوتي ينقرون على كتفي، ويسألونني: «ما لك تنتحب؟» ويهزونني فرفعت عيني إليهم فإذا أمي حانية على تسألني: «ما لك يا سونه؟».

قلت: «جوعان...».

قالت: «الأكل حاضر يا حبيبي. قمْ».

٨

وكانت المائدة حافلة بما طاب من «الآكال والأشواب» التي كان ابن الرومي يحسد التجار على الفوز بمثلها. وأحسب أن ما أثقلت به إنما كان من أجل هذا العم المحتال. فما يعقل أن تجتزئ هذه الكرش العظيمة باليسير أو الرقيق أو «تلك التي مخبرها ناعم. تلك التيَ منظرها شاحب». وكان لا يفتأ يكظ لي طبقي ويحضني على الأكل، ويزين لي طيبه وخفته على المعدة، وحسن ما يفيده من المتعة والصحة، كأنما يجد في الوصف لذة كلذة الالتهام، أو كأنما هو يأكل بعينه وأذنه فضلًا عن فمه بجوارحه وحواسه جميعًا. ولا يزال يبدئ ويعيد في الثناء على الطباخ. وكان جالسًا أمامي -أعني عمي لا الطباخ- وزوجتي -أعني أمي- بيننا إلى صدر المائدة، فلم يفتني ما كانا يتبادلان من لحظات مختلسة أو نظرات صريحة، فقلت في نفسي: «يا خبيث، أو تحسب أني أجهل أن التودد إلى الابن وسيلة إلى قلب الأم؟ وأن الثناء على حذق طباخها وسيلة أخرى؟ ولكنك تجهل أني رجل في زيِّ غلام. وما أظن بك إلا أنك كنت حقيقًا أن تجتوي هذا الطعام وترتد شهوتك عنه لو اطلعت على الحقيقة».

ولم تكن بي حاجة إلى ترغيبه وحضه، ولكني كنت أتقزز عن الطعام من سوء ما يصنع، فقد كان تلقامة، يعظم اللقمة ويلقي بها في فمه كأنما يرميها في كهف. وكان يأخذ اللحم بمقدم أسنانه، ويتمخخ العظم، ويتلمظ، ويتمطق، وتعلقت بشاربيه قطرات من الحساء، وانتشر بعض الفتات على ذقنه وصدره، حتى كرهتُ أن أنظر إليه، وصرت أتعجب لهذه المرأة ماذا أعجبها منه؟ ولكن النساء لغز، والذي يعرفهم معرفتهن لم يخلق بعد.

وكنتُ أحدث نفسي كلما وقعتْ عيني عليه أنه لا ينقصه من العملاق الذي روَّعني في منامي إلا أن تركب له في عذاريه مخلاة من لحية، ولا ينقصه من الدواب إلا أن تملأ المخلاة شعيرًا.

ونهضنا عن المائدة بعد أن انتقل ما كان عليها -أو معظمه- إلى جوفه. وآن أن نتفرق لنستريح استعدادًا للمساء والحفل الذي سيكون فيه. وكنتُ أتظاهر قبل ذلك بالفتور وثقل الجفون. فلما أخلي سبيلي ذهبتُ أثب صعدًا إلى غرفته، وأخرجت كيس النمل من جيبي، وحللته، وأفرغت معظمه في ساقي المنامة وكميها، وأطلقت البقية بين المخدات وأغطيتها، وكررت بسرعة إلى غرفة وقفزت إلى السرير، دون أن أخلع نعلي وتناومت.

ولم يكن هذا ما أبغي، ولكنه كان ما وسعني. وما حيلتي وقد خذلني الجناني. ولم يجيئني إلا بهذا النمل الذي لا خير فيه ولا غناء له؟ ولقد زعم أن قرصه كي. فعسى أن يصدق، وخامرني الشك في إمكان شعوره بدبيب النمل

ولكعه جلده، فإنه سميك غليظ. ولكني تمنيتُ على الله أن يحرمه النوم والراحة على الأقل فيسوء خُلقه، وترى هذه المسكينة المخدوعة، من شكاسته وجلافته وعسره، ما كان يحرص على سترة بحلاوة اللسان. والله قادر على أن يضع سرَّه في أضعف خلقه.

وأخذني النوم وأنا أتعلق بالأمل في النمل، وأتحول شيئًا فشيئًا إلى الاعتماد عليه والثقة به. وما أدري أطال نومي أم قصر. ولكن الذي أدريه أني استيقظت مذعورًا على صرخات مجلجلة ودبدبة شديدة في الردهة، وأصوات مختلطة ولجب عظيم. فأيقنتُ أن الله قد أجاب دعوة هذا الطفل الغرير البريء الطاهر النَّفْس والنَّفَس، وترددتُ: هل أخرج أو أبقى؟ وزهدني في الخروج علمي أني جنيتُ هذا وخوفي أن يفضحني وجهي، ورغبني فيه أن اختبائي شبهة كافية، وقرينة دالة. ولا يعقل أن أظل مستغرقًا في نومي -وإن كنتُ طفلًا- على الرغم من هذه الزعقات الشديدة، والصرخات العالية، والهرج العظيم، والخبط والدب. واشتهيتُ أن أراه وهو ينط، ويتلوى، ويتعوج، ويتحرق ويشتم. وتصورت منظره وهو يفعل ذلك فضحكتُ. ولم يبق محل للتردد والإحجام.

ولم أجد في الردهة غير أمي والخدم من رجال ونساء. وكانوا جميعًا يتلاغطون ويضوضون. ولا يحفلون أن أمي بينهم. فسألتُ عن الخبر وأنا أتكلف الجهامة، فالتفتت إليَّ أمي، وأراحت يدها على رأسي وقالت بحنو:

«مسكين، تعال نمْ في غرفة أخرى بعيدة من هنا، لا حول ولا قوة إلا بالله! ألا يستطيع الولد أن يستريح ساعة؟».

وهمَّتْ أن تمضي بي، فثبت قدمي. فما يجوز أن تفوتني ثمرة مجهودي! وسألتها: «ولكن ما هي الحكاية؟».

قالت: «علمي علمك. كل ما أعرفه أن عمَّك خرج يصيح ويصرخ، ويضرب الأرض برجليه. وفي يده إحدى قطعتي المنامة. فلما خرجنا إليه أسرع فدخل وأقفل الباب وظلَّ يصيح من خلفه ويسب ويلعن. وقد سكن الآن قليلًا. فعدْ إلى غرفتك أو تعال معي».

قلت: «كلا». ونحيتُ يدها «سأدخل عليه لأرى ماذا جرى له».

ودققتُ عليه الباب فصاح من ورائه: «لا يدخل أحد».

قلت: «أنا سونه يا... عمي».

فصرخ: « امش يا خنزير يا قليل الحياء».

قلت وأنا أغالب الضحك: «أقول لك أنا سونه».

قال: «آه تقتل القتيل وتمشي في جنازته. هيه؟ تحشو لي ثيابي نملًا وتجيء تسأل عني.. لتنعم بمنظر جلدي المشوي.. طيب يا ملعون... والله لأؤدبنك».

فالتفتُ إلى أمي، وكانت قد تبتعني لما سمعت صوته، وقلت: «هل سمعتِ؟ إنه يزعم أني وضعت له نملًا في ثيابه. فمن أين أجيء بهذا النمل، ولا نمل في البيت؟».

فجذبتني أمي من ذراعي وقالت: «سخيف... ثقيل... تعال».

فطربتُ، وكدتُ أرقص من الفرح، وهممتُ بأن أنط وأبوسها، ولكني رددت نفسي مخافة أن ترتاب فيفسد التدبير.

ولما عاد كل امرئ من حيث جاء وسكنتْ الضجة، دخلت الفتاة الحسناء التي كنت لا أزال أجهل اسمها، وأشارت إليَّ وسبقتني إلى الشرفة، ثم قالت لي بصوت كالهمس: «في المرة المقبلة أرجو أن تكون أكثر حرصًا».

قلت: «ماذا تعنين؟».

ونسيتُ أني كنت في الصباح قد رجوتُ منها أن تكون في حلفي على عمي.

قالت: «لا تحاول أن تكابر، فليست هذه بالمرة الأولى، ثم إنك قد تركت هذا الكيس» ورفعت به يدها لأراه.

فسألتها: «أين وجدته؟» وأدركت أني اعترفت. قالت: «لمحته على السرير فأخذته».

قلت: «هل رآه؟».

قالت: «لا. كان هذا قبل دخوله لينام».

قلت: «إنه يتهمني على كل حال». وهززت كتفي.

قالت: « نعم. ولكن الكيس دليل مادي يقدمه إلى ماما فتقتنع، أو تشك على الأقل، فلا ترميه بالتحامل عليك. أمَّا الآن...». ومطَّتْ شفتيها.

قلت: «هاته».

قالت: «ليعثروا به عندك؟ كلا. سأحتفظ به».

قلت، وأنا أهز كتفي: «إنه كيس فارغ».

قالت: «لم يكن فارغًا جدًّا لما وجدته. وقد تسأل عنه: من أين لك هذا؟ فتلجأ إلى الكذب. ولست أحب لك هذا».

قلت: «ألم أقل لك: إنك أجمل فتاة، وأطيب فتاة رأيتها؟».

فابتسمت، وشردت نظراتها، وقالت كأنما تناجي نفسها: «لا أدري لماذا أحبك كل هذا الحب، وإن كنت شيطانًا صغيرًا».

فوددت أن أسألها هل تشيطنت عليها؟ ولكني رأيت شرود لحظها، واستغراق خواطرها لها فعدلت. ومضت هي في المناجاة فقالت:

«غريب، في الصباح تعجبت لاستحيائك أن أدلك لك جسمك، وأنا الآن أتعجب لنفسي أشتهي أن أبوسك وأستحي أن أفعل! لعلها عينك، فإن في نظراتها شيئًا». فهممتُ أن أكر إلى ما أفضيت به إليها في الصباح. وخفت أن ترتاع كما ارتاعت، وألفيتني أستطيب ما أجد من حنوها عليَّ وأنسها بي، ومراضاتها لي. وحدثت نفسي أن في وسعي أن أحبها بذلك الجانب من نفسي المكنون في ضمير الفؤاد، لا لعطفها، بل لذاتها، ولحسن وجهها واكتمال أنوثتها. ولكن ما الرأي فيما نكبت به من هذا المظهر الصبياني؟ ولأخلق بها أن تسخر مني أو تسايرني ضاحكة لاهية.

وردني ذلك إلى التفكير في أمري، وأمر زوجتي وولدي، ماذا صنع الله بهم؟ ماذا قالوا وفعلوا حين أصبحوا فوجدوا سريري خاليًا؟ أو وجدوا جسمي ممدودًا عليه ولا حياة فيه ولا روح؟ أليس واجبي أن أبتغي وسيلة إليهم، وأن أبلغهم أني مازلت حيًّا أُرزق، وإن كنت قد مسخت طفلًا، ليطمئنوا؟ وإني لأجهل في أية رقعة من الأرض أنا، وللذي سيرني غلامًا قادر على أن ينفيني من الأرض، ويقذف بي إلى كوكب آخر، ولكن أرى الناس هنا كما عهدت. فأنا مازلت على الأرض، وهم يتكلمون لغتي، فأنا في بلادي فليس لقاء أهلي بممتنع. ولكن هبني لقيتهم فهل يعقل أن يصدقوا أن هذا الطفل الأمرد هو رجلهم الذي أختفي بقدرة قادر؟ أو مات؟ وهبني اتخذتُ التليفون وسيلتي إلى إبلاغهم ما كان، ألا يعذرون إذا ظنوا أن غلامًا يتماجن عليهم في محنتهم؟ ولكن ألا يمكن أن تنوب عني هذه الفتاة الكريمة في أداء هذا الواجب؟ وماذا يكون حكم الله إذا ذُعرتْ مرة أخرى وأُغمي عليها؟ لا بأس من التجربة على كل حال، ولنمض على حذر. والله المعين.

وسألتها: «أليس هنا تليفون؟».

فكأنما لطمتها على وجهها؟

ولما أفاقت من دهشتها قالت: «يخيل إليَّ أنك تريد أن تُطير لي عقلي، فهل سلفت مني إساءة إليك حتى تعاملني هذه المعاملة؟».

فسألتها مستغربًا: «لماذا؟ ماذا قلتُ مما يمكن أن يحمل على هذا المحمل؟».

قالت: «تسأل عن التليفون كأنك لا تعرف، وفي الصباح تقول لي: إنك لا تعرف اسمي، ولم ترني من قبل، و....».

قلت: «ألا تزالين تسيئين بي الظن، وتحسبين أني لا أقول الحق؟».

قالت: «رجعنا إلى ما كنا فيه صبحًا -وتنهدتْ- الأمر لله -وكأنما تذكرتْ فقالت- هل تعني أنك لا تعرف أنَّ في البيت تليفونًا؟».

قلت بابتسامة مُرَّة: «وأنَّى لي أن أعرف؟ ألم أقل لك...؟».

قالت: «لم أر طفلًا أعسر منك أو أصعب مِراسًا».

قلت: «حلمك. كل ما أريد منك، ويطمعني فيه حبك لي، هو أن تذهبي أنت إلى التليفون، في غفلة من الرقباء، وتطلبي رقمًا سأكتبه لك، وتقولي لزوجتي أو أحد ولدي أو الحاجَّة، إني...». ولم أتمها، فقد راحتْ تنفخ نفخًا شديدًا وكأن في جوفها بركانًا فائرًا. ثم التفتتْ إليَّ والعبرات ترفض على خديها وقالت: «ألا ترحم ضعفي؟ ألا يعطفك عليَّ أني محتاجة إلى عمل هنا؟ هل تريد أن أخرج من البيت؟».

وثنت رأسها ووضعت كفيها على وجهها وانتحبت. فكاد قلبي يتفطر. وأقبلتُ عليها أدعوها إلى السكينة، وألاطفها، وأقسم لها أني لن أعود إلى ما تكره مني.

فقالت -وهي تنحي الدمع عند خديها بأصبعها-: «لست أكره منك شيئًا، وأنت تعرف ذلك ولكن أخشى على عقلي من مثل هذا الكلام. فاصنع معروفًا، و...».

فلثمت جبينها، ومسحت لها دموعها ووعدتها أن أكف. كلا. لا فائدة. وصدق من قال:

ما حكَّ جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

ولكن كيف؟ كيف؟ هذه هي المسألة.

٩

قضيت بقية النهار -ألا متى يصبح «ذاك» النهار؟- في سجن. ولست أعني أني حبست في مكان، أو غُلِّقت عليَّ أبواب، أو حيل بيني وبين الحركة والتنقل. كلا. فقد كنت أصعد وأهبط، وأدخل وأخرج، وألعب وأرتع وأنط، في البيت والحديقة، كما أشاء بلا تقية أو حذر. ولكني كنت وحدي لا رفيق لي، ولا ترب ألاعبه ولا شيء ألعب به. فاستوحشت وكانت أمي في مخدعها أغلب الوقت. وما كان لي لذة في مجالسة امرأة يخالط إحساسي بأنها أمي إحساس آخر بأنها زوجة. ولا كانت لي رغبة في حديث هذا العم الذي نام، وشخر ونخر، بعد أن هزم جيش النمل، وكان الخدم مشغولين في جناحهم بإعداد ما كُلفوه للاحتفال «بمقدمي السعيد» أو عيد ميلادي كما يزعمون.

وما جدوى الخدم، وأنا بي حاجة إلى من أبثه شجني فيصدق ولا يرتاع أو يغشى عليه أو يفر مني. أو يحدق في وجهي ويتفرس كأنما يحاول أن يرى أمارات الجنون التي يرجو أن ترتسم أو تبرز على صفحته، أو يجسني لعلى محموم يهذي، أو يذهب يقهقه ويجاملني فيسايرني وفي ظنه أني أتخيل ما أقول وأصف.

وكان أمري يحيرني، ويورثني اضطرابًا وقلقًا شديدين، فإنه إن يكن هذه حلمًا فقد طال وثقل، والأحلام لا تطرد على هذا النحو المنتظم، والأغلب فيها أن تتغير مناظرها وصورها ومواقفها وسائر ما يتمثل فيها لرائيها بغير ضابط، وهذا الذي أنا فيه والذي أراه، يجري على نسق الحياة الدنيا، ويسير الهويني جدًّا، كتأتأة الطفل الذي يتعلم الخطو، ومتى بالله ينتهي حلم يأبى إلا أن يبدأ من بداية العمر، وتبطئ الساعات فيه كل هذا الإبطاء في الدوران؟ وسأحتاج إلى سنين وسنين كالدهر طولًا حتى أكبر، أو أفيق، وأراني مرة أخرى على سريري في غرفتي التي أوصدت بابها. أترى كسروه عليَّ، أم تركوني أنام إلى هذا العصر الذي أنا فيه الآن؟ من يدري؟ أم الأمر جد، وقد رُددتُ طفلًا؟ إن يكن هذا هكذا فلماذا بقي عقلي عقل رجل؟ أم تراه سيصغر شيئًا فشيئًا على الأيام - أو على الساعات- حتى ينقلب هو أيضًا عقل غلام حدث؟ فإني أرى نفسي تنازعني أن أصنع ما يصنع الصبيان، وأن أركب الحياة والناس بما يركبهما به حدث غرير، ولو تمَّ هذا التحول لكنت به أسعد وأشقى؛ أسعد لأن حداثتي

تستوفي حينئذ حقها بانتفاء هذا التلفيق والترقيع، وأشقى لأني أبت صلتي بما عشته وألفته، وأنساه، وتتغير شخصيتي التي أنا بها ما أنا، ولست أرضي لنفسي هذا، ولست مستعدًا أن أرضى سلفًا عن شخصية جديدة أجهلها، وأعتاضها من شخصيتي القديمة المألوفة، ثم لماذا تُكتب لي وحدي هذه المحنة دون خلق الله جميعًا، ويُقضى عليَّ أن أحيا حياتين مختلفتين، وأمر بعهد الحداثة وما يليها مرتين؟ وإذا ظلَّ الحال يجري على هذا المنوال فأصغر بعد أن أكبر، فمتى يمكن أن أستريح وأُعفى من هذا العناء المتكرر؟

وكنت وأنا أدير هذا في نفسي أتمشى في الحديقة، فخطر لي أن مدَّ البصر على المستقبل متعبة، وإن الساعة التي أنا فيها أولى بالعناية، وإن أول ما ينبغي هو أن أعرف أين أنا؟ أي بلد هذا وأي حي؟ لأعرف أقريب أنا أم بعيد من أهلي وبيتي، ويحسن أن أعرف ماضيَّ «الجديد» فقد أُقحم عليَّ حاضر أعيشه وأحياه بياض يُعد «مستعارًا» وهذا ترقيع لا تصلح به الحياة التي أعطيتها فأما أن أُعطى ماضيها معها أو أعاد إلى الحاضر الذي زُحزحت عنه وأجليت لا أدري كيف؟

وعلى فرط ما أجهدت رأسي، لم أر إلا أن الموقف يدعو إلى القنوط، فما من وسيلة مثلًا إلى إقناع أهلي، إذ تسنى لي أن أتصل بهم، بأني أنا أنا -أعني أني أنا المفقود الذي اختطف- وأن كل ما حدث أني صُببتُ في هذا القالب، فأصبحت «طبعة جيب» من الرجل الذي كنته، وكيف يمكن أن يصدقوا أو يقتعنوا؟

ولكن ألا يمكن أن يقتنعوا إذا ذهبت أخبرهم أخبار ماضي معهم وأروي لهم ما كان بيني وبينهم في حياتنا المشتركة؟ ممكن إذا أصغوا، ولم تطر عقولهم قبل أن أفرغ من الكلام.

إذن أُسلم أمري إلى الله، فلا سعي ولا محاولة؟ وماذا يسعني خلاف ذلك إلا إذا أردت أن أُحمل إلى مستشفى المجانين لأعالج وأداوى من الخرف الذي أروع به الناس. وكنت قد صرت تحت شجرة برتقال سكري مثقلة الأغصان بما تحمل من هذه الفاكهة الطيبة. فجرى ريقي. فمددت اليد وقطفت وذهبت أقشر وأمص، وقد أذهلتني حلاوة البرتقال عمَّا كنت فيه، فلما شبعت وهنئت، رحت أتعجب وأقول: إني أراني كبيت ذي شقتين أو جناحين، فلا أدخل واحدة إلا بالخروج من الأخرى، ومتى كان فتح باب من هذه، أغلق باب تلك، وإن هذا ليكسبني ازدواجًا ورحابة، ولكنه يكلفني شططًا، فإن إحدى الشقتين يجب أن تظل سرًّا مطويًّا، و إلا حلَّت بي متاعب لا ينقصني أن أعانيها. وستسكن هذه الشقة وطاويط الخواطر السود، ولكن ما حيلتي؟ وهل يعوض هذا أن الجانب الآخر يستطيع أن ينعم بمرح الصبيان وخفة الحداثة وطيش أحلامها وذهولها بجدة الحياة الفياضة عن الجد. ربما. جائز. وإذا كان قد جاز أن أصير طفلًا فلماذا لا يجوز أي شئ آخر؟

واليوم عرفنا أنه الجمعة، وغدًا يجيء السبت، وأحسب أن سيكون عليَّ فيه أن أذهب إلى المدرسة، وإن كانت عيني لم تقع في هذا البيت على كتاب أو دفتر

أو قلم، أم ترى للدرس غرفة خاصة؟ وكيف أذهب إلى مدرسة لا أعرف أين هي؟ وهبهم حملوني إليها في سيارة، أو رافقني إليها خادم، فإلى أي الفرق أقصد؟ وأي التلاميذ أُحَيِّ، وعن أيهم أُعرض، ومن ألاعب؟ ومن أتقى؟ وآه لو كان الذي تقمصت بدنه قد أورثني عداوات وخصومات وثارات؟ وأخرج يومًا أو ليلة أتمشى فإذا ثلاثة أو أربعة أو أكثر أو أقل من الحاقدين الموتورين أو المولعين بالشرّ لوجه الله تعالى، قد كمنوا لي وراء شجرة، ثم انقضوا عليَّ وأوسعوني لكمًا وركلًا وتمزيقًا؟ أو قذفوني بحجارة فشجوا لي رأسي، وأسالوا دمي، وهشَّموا عظمي؟ وكيف أتقي هذا وقد أهمل الذي تخلى لي عن بدنه أن يترك لي بيانًا يُعرفني ماضيه وعلاقاته الحسنة والسيئة؟ أما إنه والله لإهمال؛ أو لعلها سرعة الإبدال أنست الذي تولاه أن يعنى بهذه التوافه. وماذا كان الداعي إلى كل هذه العجلة؟ وما ضره لو كان تأنى، بل عدل؟ وخفت أن يذهب عقلي، فقد بدأت أخلط، فأقصرت، وبدا لي أن أذهب أعدو فيرفض عني هذا الكرب عرقًا.

١٠

وكان مساء...

إي والله كان مساء.. وأي مساء؟ لن أنساه ما حييت، فقد كان سلسلة رجَّات تميد بي منها الأرض، حتى لقد كنت أفرشح وأنا واقف، وأباعد ما بين

رجلي التماسًا للثبات، من فرط شعوري بالزلزلة. ولكني أسبق الحوادث، فلأبدأ من البداية.

والبداية أنهم عمدوا إلى حجرة رحيبة مستطيلة رفعوا عن أرضها السجادة الوثيرة -لئلا يوسخها الغلمان بأحذيتهم الموحلة- ومدوا في وسطها مائدة طويلة أقاموا عليها مقصفًا، ولا قصف هناك ولا شبهه، فما كان ثم إلا الديكة والحمام والسمك واللحم، والحشو وما إليه، والحلواء من فطائر وولائق وما أشبه، والفواكه، وفي وسط المائدة فطيرة عظيمة مخلوطة بالصنوبر واللوز والجوز والفستق -على الرغم من انقطاع الوارد من ذلك في هذه الحرب- غرزوا فيها عشر شمعات بعدد سني عمري. فتأمل! لو جعلوها مائة أو مائتين لما أخطأوا أو أسرفوا، فقد عشتُ في هذا النهار وحده قرنًا كاملًا وزيادة!

وأُضيئتْ الأنوار كلها حتى بتنا كأننا في عُرس.. فشعرت بيد غليظة تعصر قلبي، إذ تذكرت أن زوجتي المسكينة تندبني الآن، وأن ولدي قد غاض معين المرح من نفسيهما، وحلَّت فيهما الترحة والغصة وأنا هنا يحتفي بي الناس ويسرونني ويبرونني.

وأقبل الغلمان فرادي وجماعات، وأنا أحييهم وأرحب بهم، وإن كنت أنكرهم ولا أعرفهم، وكانوا يسلمون ولا يزيدون على الابتسام، ولا يجرون ألسنتهم بكلمة تهنئة، وأحسبهم ما كان يعنيهم إلا الطعام الذي سيطعمونه، أو

لعلهم كانوا على استحياء من أمي، وفزع وجزع من منظر العم الذي لا حاجة إلى تعريف جديد به.

وصاروا كثرًا، وغصت بهم الحجرة التي سيقوا إليها، ورأيتهم صامتين يتخالسون النظر فقلت في سري: إنه لا يطلق ألسنتهم ولا يحل عقدتها إلى الطعام، فنهضتُ وأشرتُ إليهم أن تعالوا إلى المائدة، فهزت أمي رأسها: أن لا. وأشارت بأصابعها مضمومة: أن تأن، وأن الله مع الصابرين.

فدنوتُ منها وسألتها: «ما الداعي إلى التأخير؟».

قالت: «أما إنك لغريب. ألا تنتظر الباقين؟ لماذا تأخروا يا ترى؟».

ومضت إلى الباب ونادت: «يا لولو.. لولو».

فتعجبت للولو هذه مَن عساها تكون. ولهذا الولع بتصغير الكبار في بيت يصلح يكون ثكنة لفيلق كامل.

وجاءتْ لولو، فإذا هي فتاتي الحسناء التي خلعتُ لها قلبها وذعرتها بما حدثتها به في الصباح، والتي أكاد أرجح أنها ما تحولت إليه الحاجَّة.

وقالت لولو بأدب -تالله ما أحلى اسمها، وإن كان يذكرني باسم كلب كان لنا وأراد لصٌّ أن يسرق بيتنا فدس له سمًّا في طعام تمهيدًا للسطو المنوي-: «نعم ياستي».

قالت الست: «اسألي بالتليفون عن حمادة وسعيد لماذا تأخرا؟ واستعجليهما».

حمادة وسعيد؟ ما أغرب هذا الاتفاق؟ وهممتُ أن أسألها من يكون هذان؟ ولكني تذكرت أني أعرفهما، أعني أن المفروض أني أعرفهما، ولا بد أن العلاقة وثيقة ما دامت أمي تعطل الحفلة كلها وتؤخرها من أجلهما.

وخرجت لولو. ولكنها لم تذهب إلى التليفون، بل دارت على عقبيها وقالت ويدها على الباب: «ها هما يا ستي». وصدق حدسي، وكنت أرجو أن يكذب. فما كان حمادة وسعيد غير ولدي الشقيين. ودارت بي الأرض حتى لم أعد أدري أواقف أنا على قدمي أم على رأسي. ولما استقرت الأشياء في مواضعها، وعادت كما كانت، ثابتة لا تترنح ولا تميل كل مميل، مسحت العرق المتصبب من جنبيني ومددت يدي إليهما واحدًا بعد واحد. فضغطها كل مهما ضغطة خفيفة، وغمز بعينه... نعم هما الشقيان ولا شك، فإن هذا الضغط وذاك الغمز دأبهما أبدًا. وهي لغة لهما يعنيان بها أشياء شتى، تترجمها أنت على مقتضي الحال إذا كنت تعرفهما، فمرة يكون المراد التهنئة أو التحية، وتارة يكون التذكير بعبث شاركا فيه، وسرا به، أو بعبث اتفقا معك عليه، وطورًا يكون إنذارًا بما ينويان أن يركباك به، فإنهما يأنفان أن يأتيا شيئًا من هذا القبيل لم يسبق الإنذار به والتحذير منه، وهكذا إلى آخره، إن كان لهذا آخر.

ولم يكن يبدو عليهما قلق، أو ما يشي بقلق، فكدت أجن.. أهذا حال فتيين أصبحا فإذا أبوهما قد شق الأرض والسرير واختفى؟ أو وجداه جثة هامدة؟

مستحيل! إذن ماذا؟ أتراني هنا وهناك في آن معًا؟ أيمكن أن أكون انفلقت اثنين، فبقي مني واحد، حيث كنا جميعًا، وجئ بواحد إلى هنا؟

وكررت إليهما الطرف فإذا هما على عهدي بهما. لا يحفلان أن أمي لا تنفك داخلة خارجة، وأن هذا العم الضخم قائم كأحد تمثالي رمسيس في مدخل وادي الملوك بطيبة، فهما يدغدغان هذا تحت إبطه، وذاك في خاصرته، ويدسان أيديهما في جيوبهما، ويخرجان ما لا أدري، ويضعانه بخفة في قفا ثالث أو أُذن رابع، فيصرخ وينط، ويدفع يده إلى ظهره، فيقرقر الشقيان سرورًا، وتوقعت ألا أنجو من عبثهما، ولكن هذا لم يكن يعنيني قدر ما كان يعنيني أن أتبين ماذا صنع الله بي هناك.. عندهما.. أعني شطري الثاني الذي انفلقت عنه، إذا كنت انفلقت شطرين.

وآليت لأجلونَّ هذه الأمر؛ فجذبتُ حمادة من ذراعه ونأيتُ به عن الجماعة التي وقف معها، وتوقعت وأنا أمضي به أن ينظر إليَّ بمؤخر عينه على عادته فأدرت وجهي إليه لأرى هل فعل؟ وصحَّ ظني، فكان ما توقعتُ، فزال كل شك يمكن أن يختلج في الصدر.

وسألته: «من أين جئت؟».

قال: «ومن أين أجيء إلا من البيت؟».

قلت: «!...!.. وكيف حال الأسرة؟».

فقهقه اللعين وأشار إلى أخيه سعيد، وقال: «إنه يسألني كيف حال الأسرة؟».

قلت: «ماذا يضحكك؟».

قال: «أتكره أن أضحك يا سونه هانم؟».

فدهشت وسألته: «سونه هانم؟ هل سمعتك تقول سونه هانم؟».

قال ببساطة وبابتسامة فيها معنى التحدي: «إن أذنك حادة». فغلى الدم في عروق الرجل الباطن، وسأل ببرود متكلف: «ولماذا بالله؟».

قال بلهجة الزراية: «هذا الشعر البناتي الجميل، والصوت الستاتي الناعم».

فاختلط الأمر في جوفي، وتنازعتني دوافع شتى، وأشبهت مجلس سكارى يتلاغطون ولا يصغي منهم أحد. فهذا رجل ثار غضبه وتلهب فهو يهم أن يصيح «اخرسْ». وهذا غلام يدفع رجله ليركل حمادة وكفه ليلطمه، ولكن الرجل يتذكر أن حمادة ابنه -أو أن له وجه ابنه- فيكظم غيظه ويرد القدم الممدودة، ويجذب الكف المرفوعة فتهوى كأنما ليس في كمها شيء. ويؤلم الغلام عجزه عن التشفي فيجول الدمع في عينيه. وقام حمادة وقد رأى ما أسفرت عنه هذه المعركة الباطنة: «ألم أقل لك إنك بنت؟».

واصطلح عليَّ عجز الغلام الظاهر وشفقة الأب الباطن. فأوليت حمادة ظهري وخرجتُ من الغرفة كلها إلى ردهة مجاورة، ورأتني لولو مستندًا إلى

الحائط، وأصابعي تنكف الدمع فخفَّتْ إليَّ وسألتني: «ما لك ؟ هل حدث شيء؟».

وجمعتني وضمتني إليها، فدفنتُ وجهي في بطنها، وتركتُ الدموع تنهمر. وأحسست أني هدأت فرفعتني عنها ومسحتْ لي وجهي. وانتحت بي ناحية وسألتني: «خبرني ماذا جرى؟».

قلت: «زعم حمادة أني كالبنت بشعري وصوتي».

قالت: «اخص عليه، وفي عيد ميلادك أيضًا!».

قلت: «المصيبة أنه مصيب، فإن شعري وصوتي يبدوان حتى لي أنا كما وصف».

قالت: «بل هو قليل الأدب».

فقالت البطانة المحجوبة عن عينيها بلسان الظهارة الصبيانية التي يسمونها سونه: «لا لا لا. لا تقولي هذا. إنه ولد طيب. وقد ربَّاه والداه فأحسنا تربيته. صدقيني فإني أعرف».

قالت: «بل أنت الطيب لا هو؛ يشتمك في بيتك، وينغص عليك عيدك. هل هذا من حسن الأدب والتربية؟».

قلت: «إن مظهري كما وصفه، وأنا أعترف بهذا، وكيف أكابر في واقع محسوس ملموس؟ ولكن قذفه به في وجهي مؤلم؛ أما لو كان يعرف...؟».

فسألت: «يعرف ماذا؟».

قلت: «لا شيء. يحسن أن أعود إلى ضيوفي».

ودخلت في هذا اللحظة سيدتان، على إحداهما مسحة من ملاحة، والأخرى شابة تامة الحسن، فلم أعرفهما كما لا أحتاج أن أقول، وإن كانتا قد أوسعتاني تقبيلًا وتهنئة. وكان من غريب أمرهما أن إحداهما -كبراهما- سريعة الكلام، ولكنها تتكلم بأقصى حلقها، ففي صوتها مقمقة لا تخف على الأذن، والأخرى كليلة اللسان ولثغاء بالراء.

وقد غافلتُهما، وهززتُ رأسي للولو مستفسرًا عنهما، فابتسمتْ وخبطت كفًّا بكفٍّ، فملتُ إليها وقلت: «إنما أريد أن تحدثيني عنهما، لا أن تعرفيني بهما».

فقالت: «إنهما كما تعرف أختان، وقد تزوجت الكبرى ومات عنها زوجها فرجعتْ إلى أهلها، فكان هذا من سوء حظ أختها. فقد كان خطابها كثرًا، فقلُّوا بفضل أختها».

فاستزدتها فقال: «الصغرى لا تخلو من سذاجة، وكلما خطبها خاطب، راحت الكبرى تدور من ورائها وترمي نفسها على هذا الطالب، وفي مرجوها أن تفوز هي به فتنفره، وهكذا، فلا أمل للصغرى في زواج ما لم يسق الله من يحمل الكبرى ويريح أختها من حماقتها».

فسألتها -لم يسعني إلا أن أسألها-: «وأنت يا لولو، اصدقيني، أليس لك خِطب؟».

فدفعتني بيدها وقالت وهي تضحك: «لا تسخر مني».

قلت: «إنك كنز، حصان رزان، لبيقة عطوف، وإن الذي يظفر بك لسعيد».

قالت وهي تتنهد: «ومن ذا الذي يرغب في خادمة فقيرة، ثم إني راضية قانعة بما أنا فيه، ولله الحمد».

وتنهدت مرة أخرى، وندت عن صدرها: «إيه» طويلة ممطوطة، ثم تنبهتْ وقالت لي: «اجر العبَ مع ضيوفك. اذهب، ماما تشير».

ودخلنا إلى حيث المائدة، وتقدمت الصفوف وإلى يميني ويساري حمادة وسعيد، ولم أخترهما أنا، وإنما اختارتهما أمي تلك التي أعرف بشقي المستور أنها زوجتي فحمدت اختيارها على الرغم من تطاول حمادة عليَّ بالقول الجارح والوصف الممض، واصطففنا أمام المائدة من الجانبين، وحمدتُ لأمي مرة أخرى أنها أعفتنا من العم والسيدتين ومضت به وبهما إلى غرفة أخرى وتركتني مع أترابي أحرارًا.

وما كادت تخرج، حتى صارت الغرفة كالحمَّام الذي ليس فيه ماء، فَعَلا الصِّياح، وكثر اللغط، وتدافعت الأيدي، وانطلقت صرخات من هنا و هاهنا، لأن واحدًا داس على قدم جاره، أو ضربَ ساقه العارية بطرف حذائه، المحدد، أو رفسه بمؤخره، أو قرصه، أو فعل غير ذلك مما يُغرى به الغلمان.

وكان حمادة وسعيد لا يأكلان إلا بقدر، وكنت أحثهما وأشجعهما فيبتسمان ولا يزيدان، فسرني وساءني هذا؛ سرني منهما القصد وقلة التهالك، وساءني أن أراهما يأكلان دون الشبع.

وآن أن ننفخ الشمعات ونطفئها، وكان شر ما في ذلك أن الأم وضيوفها عادوا ليشهدوه، فخفتت الأصوات، وصارت همسات مقرونة بخبطات خفية ووخزات للجُنوب، ونخسات من الخلف، وركلات تحت المائدة، وكان بالي إلى الجمع، وعيني عليه لا على جاري اللذين كانا يبدوان ساكنين رزينين. وقد أقلقني منهما هذا السكون، فإني أعرفهما؛ لا يكون سكون طائرهما إلا نذيرًا بالشر.

وأُدْنِيَت الفطيرة بالشموع المغروزة فيها، واحتجت مع ذلك أن أشبَّ عن الأرض لأطولها، ولم تكف نفخة واحدة فتكرر النفخ مرات إلى اليمين وإلى اليسار، وشغلت بذلك عن كل ما عداه، حتى إذا فرغت منه تناولت الشوكة والسكين وعكفت على الفطيرة أقطع منها وأوزع. وناولت منها الكبار نصيبهم، فحملوه في أطباقهم ووقفوا حلقة على مسافة منا يتحدثون، وإذا بهؤلاء الصبيان ينفجرون ضاحكين مقهقهين، مكركرين، مطخطخين، ويلقون بالأطباق على المائدة فترتج وتقع الأشواك أو بعضها على الأرض، ويروح بعضهم يصفق، والبعض يضرب المائدة بجمع يده أو ببطنها، وأنا أنظر إليهم، وأدير عيني فيهم، وفمي فاغر كالأبله من الدهشة؛ ولكنهم كانوا معذورين، فقد كان منظري يضحك الثكلى، وتصور غلامًا في ثياب جديدة نفيسة، وجيوبه تطل منها وتتدلى قشور الفواكه، من مثل الموز والبرتقال والليمون الحلو! حتى العُرى أدخلت فيها «قصاصات» من هذه القشور، وعُقدتْ على

هيئة الأنشوطة، حتى زيق السترة المحيط بالعنق تدلى من تحته قشر الموز، حتى الرأس رشقت وردتان على جانبيه، وزين اليافوخ بنثار الزهر.

وكنت حقيقًا أن أحمل كل ذلك على محمل المداعبة، ولكن العيون ضربت عليَّ من حدق نطاقًا، وكانت سخرية النظرات والضحكات بينة، لا خفاء بها، ولم يخالجني شك في أن حمادة وسعيد هما اللذان صنعا بي هذا، ولو اقتصر الأمر على قشور الفاكهة التي حُلِّيت بها ثيابي، لما كبر عليَّ ذلك، ولكنهما -والويل لهما وإن كانا ولدي- رشقا لى الورد في شعريأ ونثرا لي غلائل الزهر عليه تشبيهًا لي بالبنات وتشنيعًا عليَّ، ولمزًا فعاباني في وجهي، وحقراني على ملأ من أحداث لا شكَّ أنهم سيجعلوني مضغة في أفواههم طول الأسبوع، بل الشهر على الأرجح. ورميت الورد، ونفضت نثار الزهر عن رأسي، أول شئ، فقد كان هذا هو الذي أمضني وأرمضني، ونزعتْ أمي ما على ثيابي، وهي تضحك، سامحها الله، وتقول لي: إنه مزاح لا ينبغي أن يغضبني. ولكني كنت مغيظًا محنقًا ولا فائدة من محاولة التسرية عني، فدفعتُ يدها عني بعنف، وانطلقتُ خارجًا من الغرفة إلى الحديقة، ورحتُ أتمشى، مطرقًا، وأفكر فما ينبغي أن أصنعه، فما بقى مفر من أن أصنع شيئًا أميط به عني هذا الذي يلصقه بي الولدان الشقيان اللعينان، ويجعلاني به أضحوكة وهزؤًا بين الغلمان، ولا فائدة ترجى من الترفق بهما والحنو عليهما، فما يعرف أحد ما أعرف من نفسي، وكل ما يعرفه هؤلاء الصبيان أني ولدٌ مثلهم، وأن حمادة وسعيد مازحاني هذا المزاح الثقيل، وزعماني

كالبنت، وأني جبنت، فالخير كل الخير أن أؤدبهما، وإن كانا ضيفي؛ وإن للضيف لحرمة عند الكبار، ولكن الصغار لا يرعون حرمة لشيء، وسيحملون حلمي على محمل الجبن وضعف القلب، ويتقرر في نفوسهم أني كما زعم الخبيثان فلا أزال بعد ذلك أقع كل يوم في بليَّة، وأتعرض لحديث الأولاد وسخرهم وعبثهم.

واستقرَّ رأيي على أن أضربهما علقة، في هذه الليلة، وفي هذه الحديقة، وأنساني الغيظ والموجدة، أني لو كنت في إهابي المنزوع لهان ذاك وتسنى، وأني صغير مثلهما، ولعلي أضعف منهما وأضوي جسمًا وأقل شدة عظام. ودرتُ لأدخل أستدرجهما إلى الخروج، ثم آخذهما بما فعلا، ولكني لم أحتج إلى تكلف ذلك، فما كدت أخطو خطوات، حتى رأيتهما مقبلين على مهل. فوقفتُ في مكاني، أنتظرهما، فلما صارا أمامي قال أكبرهما -سعيد-: «لقد كان منظرك ممتعًا». كأنما يُباهي بما صنع، ولا يحفل ما أورثني من ألم وخجل، فلم أقُل شيئًا، ورميته بنظرة سخط واشمئزاز.

وقال الأخر -حمادة-: «ما كان أحلى الورد في شعرك. لو كان الوقت اتسع لضفرت لك منه إكليلًا.. يا خسارة... إذن لكنت كالعروس ليلة الزفاف».

فطار عقلي، وارتميت عليه أريد أن آخذ بتلابيبه، وأجذبه إلى الأرض وألقيه على وجهه أو شقه، وأعجنه بقدمي، ولكنه كان كأنما توقع ذلك فقد انحرف عن طريقي بخفة، فوقعت على الأرض بوجهي كالحجر، وانغرس أنفي في

التربة الطرية، فلبثت هكذا ثواني، لا أتحرك، ثم رفعتُ رأسي وجذبت رجلي ونهضتُ متثاقلًا، وشرعت أمسح ما لطخ به وجهي من الطين، وهما يضحكان، ومن ورائهما جمع يضحك معهما، فقد تبعهما الباقون، وأنا لا أدري.

وصار موقفي أبعث لي على السخط، ولهم على الهزؤ، وأدركت أنه لا خير في مثل ما صنعت، فقلت لحمادة: «لو لم تكن جبانًا لما أجفلت».

فضحك وقال بهدوء غريب: «إنما تنحيتُ عن طريقك إشفاقًا عليك، فأنك مسكين هش لا عظم في بدنك، ولو شئت لدفعتُ في صدرك فحطمت لك ضلوعك أو لبططت لك أنفك، وشوهت وجهك البناتي».

قلت: «طيب خذ». وألقيتُ نفسي عليه مرة أخرى، حرصتُ على ألا أدعه يفلت كما فعل من قبل، ولكنه أخذ بناصيتي وثنى عنقي، حتى خلتُ من ألمي أنه سينقطع، وراح يضرب صدغي بجمع يده، وبطني بركبته حتى أيقنتُ من شدة الوجع أني طائح هالك لا محالة، ثم خلاني ودفعني بكلتا يديه فانطرحت على ظهري، انطراح من لا ينوي أن يقوم بعد ذلك أبدًا.

ولم أكن -وأنا راقد- أفكر في شيء، أو أحس شيئًا سوى هذا الفتور الذي جعلني أخلد إلى رقدتي، وسمعتُ صوتًا تأدَّى إلى من بعيد يقول: «يظهر أنه استحلى الرقدة، فتعالوا يا جدعان».

وتالله ما أقسى قلوب الصغر وأغلظ أكبادهم -إن صحَّ أن لهم أكبادا، وهو ما أشك فيه- فقد تناولوني من ذراعي، ورجلي، ورفعوني بينهم عن الأرض

وراحوا يطوحونني يمينًا وشمالًا، كأني لعبة في أيديهم، لا مخلوق مثلهم مشف على الهلكة، وكنتُ لا أصيح، ولا أقاوم، لأنه لم تبق لي قدرة على صياح أو حركة، وإن كنتُ مدركًا لما يفعلون محسًّا به، ولو كان الأمر إليهم لقتلوني وما عبئوا شيئًا. ومازلت إلى هذه الساعة أتعجب لشدة نقمتهم على من تقمصت جسمه، وقلة عطفهم عليه ورحمتهم له، فما سمعتُ واحدًا منهم يزجرهم أو يدعوهم إلى القصد وينهاهم عن الشطط، فلولا أن عم أحمد -جزاه الله خيرًا- أقبل في تلك اللحظة لظلوا في لهوهم القاسي. وما كادوا يبصرونه حتى تخلوا عني وذهبوا يعدون في أرجاء الحديقة، فهويتُ إلى الأرض مرة أخرى، كالحجر...

١١

وأفقتُ في سريري، على أمي بجواري، وعمي يتمشى في الغرفة، ولولو تضع كمَّادة على خدي الوارم.

وسمعتُ عمي يقول: «لقد كان رأي دائمًا أن هذا الولد يجب أن يزاول ألعابًا رياضية؛ لتشتد عظامه، وتقوى عضلاته، ولكنكِ تبالغين في الخوف عليه من النط والقفز، فانظري ماذا صار؟ ولد صغير أصغر منه يدقه هذا الدَّق ويطحنه حتى تنقطع أنفاسه. لو كان بنتًا لما كان هناك بأس، ولكنه ليس بنتًا».

فقالت أمي تقاطعه: «ألا تكف عن هذا اللَّت والعجن؟».

فدار وواجهها -بكرشه- وقال محتجًّا: «لتٌّ وعجنٌ؟ أنا أريد أن يصبح رجلًا، وأنت تربينه تربية البنات. وأنصحك مرة وأخرى، فتقولين أني ألتٌّ وأعجن! سبحان الله العظيم! طيب. ولكني لن أكف عن اللَّت والعجن حتى تغيري كل هذا، إنه ابن أخي -يعني ابني- كما هو ابنك، ماذا تخشين عليه؟ أن تنكسر ساقه؟ أو ذراعه؟ أن يدق عنقه؟ كل الأولاد في كل الدنيا يلعبون ولا يصيبهم سوء. فلماذا يصيبه السوء وحده دون هذه الآلاف المؤلفة؟ وهبيه انكسر، فالكسور تجبر».

فتنهدتْ وقالت: «طيب.. طيب، آمنا وصدقنا، ولكن هذا ليس وقت الكلام ثم إن الدكتور قال: يجب ألا نزعجه بكثرة الكلام، فاصنع معروفًا».

فقاطعها بدوره وقال ساخرًا: «الدكتور. دكتور لماذا؟ لأن ولدًا ضربه علقة؟ تقلبين الدنيا لأن خبطة ورم منها خده؟ هذا إسراف في التدليل. هذا...».

فصاحتْ به: «يا أخي أنا في عرض النَّبي، اسكتْ».

فصاح بدوره: «أسكت؟ كيف؟ إنك تفسدين حياة الولد المسكين فكيف أسكت؟!».

قالت: «طيب، تول أنت إصلاح حياته، بس فيما بعد. ولنتركه الآن مستريحًا».

ونهضت بعد أن ألقت عليَّ نظرة، وإلى لولو أخرى، وسحبت عمي من الغرفة، وخيرًا صنعتْ. فقد بدأ رأسي يوجعني من صوته «اللجب» المضوضي.

ولم يكن بي شيء يستحق الذكر غير هذا الورم الذي زاد به خدي انتفاخًا، وكان فتح فمي ربما كلفني بعض التعب، وقد استغربت أن يكون الأمر احتاج إلى طبيب، ولكني أحسب أن أمي أفزعها الإغماء، فاستدعته، وكنت لما هجمت على حمادة أشعر أني أقذفه مني بجبل، فإذا أنا هش ركيك البناء خرع، لا أقوى على شيء، وأخجلني هذا الذي تبينته من أمري ومن صدق حمادة في وصف وهني وخوري، وجال الدمع في عيني وأنا راقد وعلى خدي الكمادة، فربتتْ لولو على ذراعي، وقالت بابتسام: «علقة تفوت... ما حد يموت. تعيش وتأخذ غيرها».

كانت تمزح ولا تقصد إلى التعبير. فأطلق ذلك لساني فقلت: «لم أكن أعرف أن جسمي واهٍ إلى هذا الحد. وقد كنت واثقًا حين هجمتُ عليه أني سآكله بعظمه». ففتحت عينيها مستغربة، وسألت: «أنت تقول إنك هجمت عليه؟».

قلت: «نعم. فقد تحرَّش بي واستفزني فنفد صبري فألقيت بنفسي عليه وكان ظني أني سألقي عليه درسًا لا ينساه، فتلقيته أنا عنه».

قالت: «لا أزال أستغرب. كيف هاجمته؟».

قلت: «ألست أقول لك إنه استثار غضبي؟».

قالت: «ولكن.. لقد كنا نظن أنه هو البادئ بالعدوان».

قلت: «العدوان باللسان. نعم. أما باليد فأنا البادئ».

قالت -وكأنها تحدث نفسها-: «غريب...».

قلت: «ما هو الغريب؟».

قالت: «أن تكون أنت المعتدي، عهدنا بك أن يُعتدى عليك، فتلوذ بالفرار ولا تثبت لأحد».

فصرتُ أنا المتعجب، وسألتها: «أهذا كان دأبي؟».

قالت: «كأنك لا تعرف! إنك اليوم على خلاف ما عهدنا في كل أمر. مدهش هذا التحول؟».

قلت في سري: «ما خفي كان أعظم، وإذا كان يدهشها إلى هذا الحد أن تراني أتحول من الفرِّ إلى الكرِّ، فكيف لو اطلعت المغيب من تحول الرجل الشديد المحتنك إلى فتي ضعيف القلب منسرق المنة؟».

وقلت لها كالمعتذر: «لو كنت أعرف أني ضعيف إلى هذا الحد لبقيتُ محافظًا على تقاليدي».

فزاد عجبها ولم ينقص. وقالت -وأغضت عن المزح الذي في قولي-: «كيف لم تكن تعرف؟ هل هذا معقول؟».

قلت: «والله ما أقول إلا الحق، ولقد حملت عليه وأنا على يقين أني سآخذه في راحتي، كأنه لعبة صغيرة، ثم ألطعه وأقضي عليه، ولكني كنت أجهل ما أنا. فما سبق أن امتحن قوة هذا الجسم ومبلغ جلده». فجست جنبي، وفي ظنها أني أهذي من حمي أو غيرها. فلما لم تجد شيئًا، قالت: «إنك تدير لي رأسي بهذا الكلام الذي تلهج به طول النهار.. فيحسن أن تسكت لئلا تتعب».

فسكت، فإن الاسترسال في هذا المعني عبث لا طائل تحته. وكنت أرى رقتها وحدبها وهي تمرضني، فأعجب لمثلها في مثل جمالها كيف أخطأها الزواج، وما أخطأها في الحقيقة، فإنها غضة السن، ولكن مثلها يخطف خطفًا.

وقلت لها بعد قليل: «أراك هربت مني الليلة كما تقولين إني كنت أهرب من الأولاد».

فعبست -تكلفت التعبيس- وهل يحسنه من يضحك الجمال في وجهه ويضيء؟ وقالت: «لست فاهمة».

قلت: «سألتك هذا المساء لِمَ لم تتزوجي، فهربتِ من الجواب الصريح».

فضحكت، وقالت: «آه هذا... لا لم أهرب.. قد يسليك أن تعلم أن رجلًا ليس من طبقة الخدم مثلي خطبني».

وضحكت مرة أخرى.

فقلت معترضًا: «لست أرى موجبًا للضحك». قالت: «نعم، رجل ذو مال، حكاية ظريفة. هل تريد أن تسمعها؟».

قلت: «طبعًا. ولكن لماذا هذا السخرية. أو هذه المرارة في لهجتك؟ ما عيب الرجل ذي المال؟».

قالت: «لا عيب في ماله وإني لأكون كاذبة إذا ادَّعيت الزهد في المال والنعيم والراحة».

قلت: «العيب فيه هو إذن؟».

قالت: «انتظر، أصرَّ أن أتعلم الموسيقى».

قلت: «فنٌّ جميل يزيد الحياة طيبًا وسعة».

قالت: «صحيح. واشترط أن أتقن العزف على الكمان. وعليه النفقات كلها».

فظننت أن الذي زهدها في الرجل طول الزمن، فسألتها فقالت: «كلا. فإني أنتظر بغير خطبة. فلماذا لا أنتظر بخطبة؟ ولم يكن هذا كل ما طلب وشرط. فلا بد أن أتعلم الرقص أيضًا».

قلت: «أراه رجلًا يعرف من أين تؤكل الكتف كما يقولون».

قالت: «كتف؟ كتف إيه؟».

فابتسمتُ وقلت: «يعني أنه ذكي يفهم».

قالت: «طيب. وكان ابن خمسين وأصم وله ساق من خشب».

فلم أقل شيئًا. ولكن الغلام الذي لبست جلده ضحك. أما الرجل الذي في جوفه فحدَّث نفسه أن الدنيا لا تكون دنيا إلا إذا اجتمع فيها كل صنوف الناس.

وعادت تقول بابتسامة: «ولي محبٌّ عاشق ولهان آخر. أظنك تعرفه».

قلت: «أنا أعرفه؟ مَن هذا؟».

قالت: «عم أحمد الجناينى».

قلت: « آه.. هذا الذي نهيتني عن الكلام معه؟».

قالت بحدة: «لم أنهك. وإنما نقلتُ إليك كلام الست».

فاستغربت حدتها، وقلت: «إنه رجل طيب، وله عليَّ فضل، أذكره ولا أجحده، وإن كان قد خيَّب أملي قليلًا».

فصارت هي المستغربة، وسألتني بلهفة: «خيَّب أملك؟ كيف؟ إنه يحبك حبًّا شديدًا، ويحب التراب الذي تمشي عليه».

فسألتها مستدرجًا لها: « هل قال لك ذلك؟».

قالت ببساطة: « مرارًا كثيرة. إنه لا يكاد يكون له حديث إلا عنك».

فحدَّثت نفسي أن في الزوايا خفايا كثيرة، وفي الدنيا أعاجيب لا تنتهي. هذه الفتاة يخلُب جمالها الألباب. وفي وسعها لو شاءت أن تقطع هذه العزوبة تتزوج في أية طبقة. فما يستطيع أن يقاوم فتنتها من تتصدى له. فتعرض عن المال والجاه. وتقصر أملها على بستاني فقير، تحذيه شر من الحفى، فالحق أن الحب أعمى، والحظ أيضًا. وماذا ترى أعجبها من هذا البستاني؟ وماذا يروقها من حديثه، أو مجسله، أو حاله على الجملة، حتى تروح تنشد لقاءه، وتنعم به أيضًا في غفلة من الرقباء؟

وإنه لرجل طيب، ولكن هذا لا يكفي، وقلت لنفسي: «خسارة. خسارة والله».

ويظهر أني تكلمت بصوت عال، وأن هذا صار عادة لي، فقد سألتني: «ماذا تقول؟».

قلت: «لا شيء».

قالت: «ولكنك كنت تقول شيئًا؟».

قلت: «نعم كنتُ أُعرب عن أسفي؛ لأنَّ عم أحمد جاءني بنمل. ولم يجيئني بما هو أجدى وأفعل وأكفل بأن يحمل صاحبنا على الهرب».

قالت -وهي تضع سباتها على شفتيها-: «أظنه آتيًا لآن، ليعودك فإني أعرف دبَّة رجله».

قلت: «إذن سأتناوم حتى تنقشع السحابة أو ينحسر ظل الجبل». وغطيتُ عيني بذراعي.

ولم يخطئ ظنها، فقد كان هو القادم بعينه -أو بطوله وعرضه وكرشه- ولم أره لأني لم أرفع ذراعي عن عيني، ولكني سمعته يقول هامسًا: «أهو أحسن؟».

وأحسبها هزَّت رأسها فما سمعت صوتها. فعاد يقول: «عال! الحمد لله. مسكين هذا الولد. عسى أن يصبح بخير».

ثم كأنما خطر له خاطر وهو يمضي، فارتد وقال: «اسمعي يا لولو. أرجو أن لا.. لا تذكري شيئًا عن زيارتي هذه لستك فإنها.. فاهمة؟ أشكرك».

وخرج وردَّ الباب بحذر وخفة؛ لئلا يوقظني.

وسألت لولو: «ماذا يعني؟».

قالت: «إنه ثقيل ولا مؤاخذة ولكنه طيب القلب».

قلت: «ولكن ماذا يعني؟».

قالت: «ستي دائمًا تعيره أن قلبه يرق لك على الرغم من الثورات العنيفة التي يثورها. وهو أيضًا يقول عنها ذلك.. الحقيقة أن الاثنين يحبانك حبًّا لا مزيد عليه».

قلت: «شكرًا لهما.. وهل تحبينني مثلهما؟».

قالت: «أتشك في ذلك؟».

قلت: «قدر حبك لعم أحمد؟».

فاتقد وجهها واعترفت إذ سألتني «مَن أدراك؟».

قلت: «فضحك وجهك ونمَّ عليك هذا الأرجوان الذي صبغه».

فأطرقت حياءً، فقلت أطمئنها: «لا تخافي علي سرك. فسيظل مطويًّا مع سري».

فرفعتْ رأسها وسألت: «سرك؟ وما هو؟».

قلت: «آه.. هذه هي المسألة.. إنه لا يبقى سرًّا إذا أفضيت به إليك».

قالت: «يا لك من ماكر.. هل تعرف أنك تبدو لي أحيانًا أكبر مما أنت؟».

قلت: «أوه. جدًّا. جدًّا».

١٢

وآن أن أنام. ولم يكن يرنق في عيني نوم. نعم كنت متعبًا مهيضًا. وكنت أراني أحيانًا بين اليقظان والوسنان. ولكني لم أكن أشعر بمقاربة النوم أو ثقل الجفون.

ولكن قيل لي إن النوم وجب، فقلت وهو كذلك، ورأيت أن هذا يتيح لي أن أخلو بنفسي فتظاهرت بالطاعة فذهبوا عني وصرت وحدي فوسعني أن أفكر في أمري، في سراح ورواح، وأمان من أن يتطفل على خلوتي أحد بوجوده.

وقلت لنفسي هذا يوم الجمعة قد انقضى، لا بسلام، بل بعلقة، ولا عجب أن يطرد النحس فيه من البداية إلى الختام. وقد انتهت الحفلة بما لا أعرف. فما عنيت بأن أسأل. ولا صدقت لحظة واحدة أن هذا عيد ميلادي. وكيف يكون وأنا لم أولد هنا ولا لهؤلاء القوم الذين ما عرفتهم إلا في هذا اليوم؟ ولست أدري هل ينتظر مني في صباح الغد أن أذهب إلى المدرسة أو تعفيني العلقة منها أيَّامًا؟ وعلى أن هذا لم يكربني كما يكربني ما صرت إليه، وما أقصيت عنه فماذا أصنع؟ هل أوطن نفسي على السكون إلى هذا الحداثة الجديدة، وأحتمل أن أكبر شيئًا فشيئًا، سنة بعد سنة حتى يأذن الله مرة أخرى أن أعود رجلًا، بعد أنت كنت قد فرغت واسترحت من هذا العناء؟ ولماذا يقضى عليَّ أنا وحدي بهذا التكرار؟

وعدت أتساءل أهذا حلم أم أنا أرى حقًّا؟ فإذا كان حلمًا فلعلي إذا تحركت أن أستيقظ.

وأغمضت عيني وجعلت أدفع يديَّ ورجليَّ وأضرب بهما الهواء وأتقلب بعنف. ثم فتحت عيني وأجلتهما فيما حولي وأنا أتوقع أن أرى غرفتي القديمة التي أُسري بي منها ولكني على الرغم من الظلام لم أر أني قد عدت إليها، فهبط قلبي وكاد اليأس يخامرني من النجاة أو الأوبة إلى ما خلَّفت.

ثم ضحكت؛ أضحكني أني أتكلف هذا العبث لأستيقظ، وما كنت نائمًا، ولو كان شيء خليقًا أن يوقظني، لتكفلت بذلك العلقة السخنة.

وسألت نفسي «والآن ما العمل؟» وجلست ونزعت الكمادة التي تركوها على خدي وحدَّثت نفسي أن الطبيب الذي عادني، وأنا غائب عن وعيي وعن هذا العالم الجديد الذي قُذف بي عليه، حمار. وكيف عجز أن يتبين أن هذا الإهاب الصغير، محشو برجل كبير ولم يفطن إلى هذا الغلطة الجسيمة؟ وما قيمة ورم قليل في الخد وأنا كلي وارم؟

وكيف غاب عنه أن جلدي مكظوظ ومشدود لأن ما هو أكبر منه حُشر فيه؟

وكففت عن هذا فما فيه خير. وقلت: إن الطبيب لم يكن معنيًّا إلا بما يستحق عليه أجره. ولو كان عني بالفحص الجدي لاطلع على معجزة ولوقع على ما لم يقع عليه طبيب من قبل، ولصار بذلك علمًا خالد الذكر. ولكنه لا يعرف إلا ما في كتبه ولا يجعل باله إلا إلى الأعراض البارزة جدًّا، ويدخل متأثرًا بما قيل له، وقد عادني وكل ما في رأسه أني ضُربت علقة. قلم يكلف نفسه أكثر من النظر إلى المواضع التي أصابها الضرب.

ولو أهمل ما قيل له، ودقق في الفحص لعلم أني مدسوس في جسم غير جسمي.

وبدا لي أن الطبيب سيضيع وقتي، إذا كنت أعود إليه كلما اعتزمت أن أتركه. وماذا كان يسعه؟ أهذا صندوق يستطيع أن ينزع مساميره ويرفع غطاءه ويخرجني منه؟ إذن فلندعه إلى ما هو أجدى.

وخطر لي أن أجدى من ذلك أن أنهض وأحاول أن أتصل بأهلي! وقد عرفت أن هاهنا آلة تليفون، وقد نام البيت، ففي وسعي أن أستخدمه، وبحسبي أن أسمع صوت زوجتي أو غيرها ممن في البيت، فما أطمع أن يصدقوني إذا قلت لهم إني رجلهم! ورأيتني وأنا أهبط على درجات السلم بحذر وعلى أطراف أصابعي أتساءل: كيف يكون الحال إذا طلبت بيتي فأجابني صوت كصوتي الذي أمسيتُ به وأصبحتُ بخلافه؟ أي إذا تبينت أني لا أزال هناك، وإن كنتُ هنا؟

وطردت هذا الخاطر فإنه مثبِّط ومزعج، وذهبت أنسل من غرفة إلى أخرى وأتلفت وأستثبت قبل أن أدخل حتى اهتديت إلى التليفون، وكان في غرفة تشبه غرفة مكتب إلا أنه لا كتب فيها ولا شيء مكتب ألصق بالحائط ووضعت عليه ربطات مختلفة مزدانة ذات ألوان بهيجة، خطر لي أنها عسى أن تكون «الهدايا» التي أهديت إليَّ في «عيد ميلادي» ونسوا -لا أدري كيف؟- أن يقدموها إليَّ، أو حتى أن يذكروها، ولكني لم أعن وانصرفت عنها إلى التليفون،

وهو فيما أعلم، أو فيما كنت أعلم، مجعول لتيسير أسباب الاتصال بين الناس، ولكنه كان في ليلتي هذه كأنما جعل لمكيدتي وامتحان صبري، فما رفعت السماعة عنه مرة وأدرت رقم تليفوني إلا خلتني في نادي سمر وقصف، وما أكثر ما سمعت مما لو قرأته في كتاب، أو شهدته على مسرح أو في سينما لقلت إنه شطط في التخيل، ومبالغة في الإغراب، وكثر المتطفلون عليَّ، وكانوا ينهرونني ويأمرونني أن «أخرج» ويوبخونني ويقولون لي: إن استراق السمع عيب. كأنما كنت قد فعلت ذلك، أو تعمدته، أوكأنما هم لا يعدون أيضًا متطفلين عليَّ! وشتمني واحد بألفاظ لم أكن أعلم أنها مما يجري به اللسان حتى بين المرء ونفسه، فتعجبت للإنسان وما ينطوي عليه من جبن أصيل، وسوء أدب وقلة مروءة. وظنني بعضهم فتاة لأن صوتي قد صار كصوت البنات كما أسلفت، فراح يغازلني ويحاول أن يتعد معي!

وكدت أخرج عن طوري، فقد أجهدني وأتلف أعصابي هذا الخلل الذي أصاب التليفون، ورأيتني مرات أهم بأن أصيح لأطرد هؤلاء الطفيليين الواغلين الذين لا يزالون يحشرون أنفسهم كلما طلبت الرقم، كأنهم آلوا على أنفسهم ليحولن بيني وبين الاتصال بمن أريد، وخفتُ عاقبة الصياح فألقيت السماعة وعدت أدراجي إلى غرفتي، لأطمئن، فقد جرى بظني أن لعل بعضهم قد زارني ليرى كيف حالي.

ولكني وجدت كل شيء هادئًا كما تركته، فقلت أنفض الأرض حول البيت فإن الليل فرصتي، فلن يأخذ أخد عليَّ متوجهي.

وكان باب الشرفة مفتوحًا ليدخل الهواء. فحركت إليها ومددت يدي فجذبت غصنًا من الشجرة التي لفتت نظري في الصباح والتي تسلقها عم أحمد لما جاءني بالنمل. وجلست على حافة الشرفة، وثبَّت رجلي بين فرعين، وانتقلت إلى الشجرة. وتذكرت أني كنت في حداثتي الأولى أُحسن تسلق الشجر، وشجعني ذلك وقوَّى قلبي، وإن كان الحذر لم يزايلني، وكان في أغصانها خشونة آذت هذا الجلد الرقيق الريان، وخطر لي وأنا أتأفف أن حمادة على حق؛ فما هذا بجلد صالح لجسم رجل. وتذكرت وأنا أنتقل هابطًا بين الغصون شجرة جميز سهوق في بيتنا الذي نشأت فيه كنت أوثرها على السلم. ولكني كنت ولدًا قويًّا مصكًا لا أعيا بعمل لا كهذا الخرع الذي دسوني فيه.

وبعد مشقة عظيمة صارت قدماي على الأرض. فنفضت التراب والورق. وشرعت أتلفت. وتمنيت لو كنت أعرف أين العم أحمد الآن، فأذهب إليه وأستعين به. فإني بغيره خليق أن أسير على غير هدى. ولم يكن في رأسي خطة واضحة. وكان كل ما يخطر لي هو أن أحاول أن أعرف أين أنا من الكرة الأرضية. فقد رجح عندي أني مازلت عليها، ولقد كان هذا أولى بالنهار. ولكن ما فات مات. ولا فائدة من الأسف.

وطار طائر ففزعت لحركة جناحيه المفاجئة وخفقهما. وكنت قد نسيت الظلام وما عسى أن يطالعني به. فسألت الله السلامة. ولست ممن يخافون الليل وسوداه، ولكني انتقلت إلى جسم جديد، أجهل كنهه، ولقد امتحنته في المساء فخيب أملي فمن أدراني الآن أني لست متهورًا في هجومي به على هذا الليل الأسود؟

وما كاد هذا يمر بخاطري حتى رأيت عينين واسعتين شاخصتين فاضطربت. وزاد اضطرابي أني لا أرى الجسم الذي تطلان منه، ولم أدر أهما عينا أفعى أم قط أم بومة؟ وتراجعت ويدي على فمي لأكتم الصرخة التي أحسست أنها ستنطلق. ولم أر أن ذا العينين يدنو مني فاطمأن قلبي قليلًا. وخطر لي أن أجرب. فقلت: «بِس» فاختفت العينان. فأقدمت وسرت خطوات. وإذا هما أمامي مرة أخرى، فقلت: «بِس» فاختفتا ثانية. فمضيت في طريقي وقد أيقنت أن هذا قط أسود. ولكن خوفي ما كان يخف إلا ليشتد، ولا يذهب إلا ليجيء. فقد كان القط -كلما قلتُ «بِس»- يتركني أو يختفي، أو يمضي أمامي، ولكنه كان فيهما يخيل إليَّ، كأنما ينط ويدور ويرشقني بهذه النظرة الجامدة الساكنة التي لا يتغير تعبيرها، وكان ربما كبير في وهمي أنه عفريت، خرج لي في زي قط، ولكني كنت أطرد هذا الخاطر وأقول: إن «سونه» قد تفزعه العفاريت أو القططَ ولكن سون يحتل بدنه عقلي أنا الناضج الذي لا تخيفه هذه الأوهام.

وصار القط رائدي، فهو يمضي قدامي، وأنا أمضي خلفه، فما كان يهمل أن يبدو لي بعد كل اختفاء، وما كان أغرب أن أمشي مهتديًا بعينين تومضان في ظلمة الليل، ولشد ما وددت أن ألمس الجسم الذي هما فيه. فقد كانتا كأنهما منزوعتان ومرسلتان في القضاء وحدهما، وبمجردهما.

وإنا لنخبط في هذا الليل -أنا والقط أو أنا وعيناه- وإذا بزمارة الإنذار تنطلق مؤذنه بغارة جوية. يا خبر اسود! وما العمل الآن؟ لقد بعدت عن البيت حتى اختفى فأنا لا أراه ولا أعرف موقعه من الجهات الأربع، فأين أختبئ إذ احتجت إلى الاختباء؟ وسيلتمسونني في غرفتي ليحملوني معهم إلى مخبأ -إذا كان لهم مخبأ- أو ليطمئنوني ويذهبوا عن الروع، ولن يجدوني، وحينئذ تقوم القيامة، وكيف حال أهلي يا ترى الآن؟ أهلي أنا لا أهل الذي أنا مدسوس فيه؟ وحدَّثت نفسي أنه لا خوف عليهم أن يجزعوا كما أرى الذي ابتليت بجسمه يجزع، فقد راح ينتفض ويرعد حتى كاد يخلع لي فؤادي. ثم ذهب يعدو ويدردب من الخوف ويحملني معه هنا وهاهنا من فرط الفرق والحيرة. وأنا أصيح به -من الباطن- ما هذا؟ ليس هكذا يصنع العقلاء... ألا يمكن أن تقف وتسكن حتى أفكر لك؟ فلا يقف ولا يسكن ولا يتيح لي الفرصة للتفكير. فأنا محمول معه بكرهي إلى حيث لا أعلم.

وسمعت طلقة مدفع فقلت: «آه جاءك الموت يا ساكن جسم سونه الأهوج الأخرق الوهنان!». أترى عقله قد أخلق وتمزق واحتاج أن يرقع بعقلي؟ وليته يدعني أرقعه له! إذن لاستطعت أن أُجري أمره على استواء.

وذهبت أعدو معه، وهل كان يسعني أن أتخلف؟ وإذا بي أصطدم بما حسبته أول الأمر شجرة أو نخلة، ثم تبينت أنه إنسان مثلي، فقد قال: «أخ» كما قلتُ ووقعتُ على الأرض، ولكن يدَيّ كانت مطبقة على قطعة من ثوبه، عرفت فيما بعد أنها تكة سراويله، فأدركت أن العم أحمد، على أنه أعفاني من إضناء عقلي فقد سألني: «مَن هذا؟ لكأني به سونه». فعرفته من صوته قبل أن أعرفه من شارته ورأيته -أعني تكته- وقال سونه -أخزاه الله-: «خبثني يا عم أحمد!!» فخجلت، ولو كنت باديًا، ولم أكن مختبئًا في جسده الخوار لتصببت عرقًا. وما كنا سمعنا سوى قذيفة واحدة فما داعي كل هذا الفزع والجزع؟ ومن حسن الحظ أن العم أحمد لا يستطيع أن يراني وأنا في مخبأي الآدمي، وإلا لذبت خجلًا. وربت العم أحمد على كتف سونه ولو استطعت لدفعت يده، فما كانت بي أنا حاجة إلى طمأنينة وقال: «لا تخف ! تعال معي».

قلت: «إلى أين؟».

قال: «على البيت طبعًا. لماذا خرجت؟ وكيف خرجت في هذا الوقت؟».

فاختلفت أنا وسونه: هو يريد أن يحدثه عن الغُراب الذي طار عن الشجرة فأطار لُبَّه، والقطة التي أرعبته في الظلام بعينيها، وأنا أشعر أن في وسعي أن أكاشف هذا الرجل بسري، ألست قد تبينت أنه يحب لولو. والحب يلين القلوب وينشط الخيال، ويكبر القلب، ويقوي العطف، والرجل الذي يحب لولو لا بد أن يكون له نظر وذوق، وإن كان لا يحتاج إلى نظر كثير ليفطن إلى جمالها، فأخلق به بفضل فطنته ونظره أن يرى أني مخبوء في هذا

البدن الذي ليس لي، وأني في الحقيقة موءود فيه، وعسى أن يساعدني على الاهتداء إلى بيتي وأهلي فأتصل بهم ولو من ناحيتي أنا.

ولم يطل الخلاف، فقد تغلب سونه فإنه ذو اللسان، وأنا أخرس أو لا لسان لي على الأصح، فقد بقى هناك مع جسمي الفارغ، فلشد ما تتحكم الأجساد في النفوس وتسيطر عليها! هذا أنا أسكن جسدًا لم يسو على قدي، ولم يصنع علي قياسي، فهو يستطيع أن يصنع بي ما شاء، ولا أستطع أنا إلا أن أتأسف وأهز رأسي هزًّا مجازيًّا، فما لي رأس كما لا حاجة بي أن أقول.

ولم أكن أعرف أن سونه كذاب مذاع، فأدهشني فشره ومعره، وأخجلني أيضًا، وحاولت أن أغمزه ليقتصد فيما يزور ويختلق من الأباطيل والترهات، ولكنه لم يحفل غمزي أول لم يشعر به، وراح يخبر عن خرافات لا أصل لها، ولم يقع منها شيء ويقول فيما يقول: أن ماردًا سدَّ الطريق في وجهه، فرماه بآية الكرسي فاحترق المارد وخلا في وجهه - أعني سونه- الطريق.

وزعم أيضًا أن ذات مئزر أبيض همَّت بعناقه وضمه إلى صدرها الذي كانت الإبر البارزة منه تلمع في الظلام، ولو ضمته لانغرزت الإبر في صدره هو فمات -«فقلت في سري ليتك مت! إذن لأمكن أن أُنقل إلى جسم آخر لا تخجلني سكناه»- ولكنه حاورها وفرَّ وصارت القطة في أساطيره ذئبًا تارة، وكلبًا عقورًا تارة أخرى.

أما الغُراب فكان ساحرة يطير بمقشة كما رآها على ما يظهر في بعض الصور المتحركة. فقلت لنفسي: والله إنك لذو خيال يا هذا، ولكنه خيال لا يعدو خيال الصبيان من أمثالك ولا يجاوز بك آفاقهم. فإذا كان لا بد لك من الكذب والادعاء فهلا كنت استشرتني لألهمك ما هو أبرع من ذلك؟

ولكن المدهش أن العم أحمد لم يُدهش، ولم يشمئز من هذا الكذب الصراح، بل كان يشجعه عليه ويستزيده منه ويبدي له التصديق، والاستطابة، ويحمد الله تعالي على نجاته تارة ويثني على شجاعته وقوة قبله طورًا، وهكذا إلى أن بلغنا البيت فقلت لنفسي ستسمع بضع أساطير أخرى حين تجتمع علينا الأم والعم والخدم. فما يليق أن يحرمهم السيد سونه الاستمتاع بمثل ما استمتع به الجنايني من ثرثرة لسانه الحلو الذي يظهر أنه يفرح بقدرته على دهورته في شدقه.

وتحسسنا طريقنا حتى هبطنا إلى حجرة مسدودة النوافذ، وفيها نور ضئيل أخضر من مصباح بترول صغير موضوع على الأرض في ركن، وكنت أعجب لعم أحمد ودخوله البيت كأنه من أهله، وفي هذه الملابس التي لا يليق أن يلقى بها أحدًا وخاصة إذا كان هذا الأحد سيدة، وزاد عجبي أني رأيتهم لا ينكرون وجوده بينهم واجتراءه وتسحبه عليهم هكذا.

وأقبلت الأم والعم ولولو والبقية، وصار كل امرئ يرميني بسلسة متصلة غير منقطعة من الأسئلة ولا ينتظر جوابها.

ولما كلَّت الألسنة، وفترت همتها قال سونه:«لما سمعت الزمارة خرجت لأتفرج فقابلني عم أحمد وعاد بي».

بهذا الإيجاز المخل!! فلو استطعت لقرصته! فعادوا يقولون كيف يفعل ذلك وهو لم يشف؟ وكيف يخاطر بحياته الغالية؟ وكيف وكيف حتى ضجرت في جوفه، ولكنه كان يبتسم ولا يستثقل حملتهم اللفظية.

وما كاد أكثرهم يكبح لسانه ويكف عن اللغط حتى خُيل إليَّ أن الأرض تميد، فقد انطلقت المدافع مرة واحدة، انطلاقًا متتابعًا، وكانت كأنها قريبة منا، وكنا نحس أن بعضها

منصوب على بابنا، فقالو: يا ساتر استر... وجمعتني أمي في حجرها وأحاطتني بذراعيها وألصقت وجهي بصدرها، ولم أكن أنا خائفًا؛ ولكن سونه كانت تصطك ركبتاه وأسنانه، ولم يكفه هذا فأنشأ يبكي بصوت عال! ولا يكتم أنه «خائف يا ماما». وحتى هذا لم يكفه فصرخ، ولم يكن هذا لائقًا، ولكن ما حيلتي وهو الذي في وجهه العين الباكية، وفي فهمه اللسان الدائر؟ ولو كان الأمر إليَّ أنا وحدي، لأقعدته على كرسي وألزمته الرزانة والاتزان ورباطة الجأش، ولوضعت له رجلًا على رجل، وجعلت في يده سيجارة، فإن التدخين يطيب في مثل هذا الوقت، ويعين على إفادة السكينة. وعلى ذكر التدخين أقول: إني لم أر في هذا البيت الطويل العريض أحدًا يدخن، فلم أستطع أن أحتال وأسرق سيجارة أدخنها سرًّا وخفية، ولعل هذا الحرمان هو الذي أضعف إرادتي فراح سونه يركض بي بغير عنان.

ولم يطل الأمر وانطلقت الصفارة المؤذنة بانتهاء الغارة، فما راعني إلا أن هذا الفتى الأخرق قفز من حجر أمه وانطلق يصفق ويقول: «هيه..» ممطوطة طويلة.

وأخجلني سونه مرة أخرى ونحن نصعد درجات السلم عائدين إلى غرفتنا. فقد تعلق بذراع أمه وراح يموء كالقطة، فلما سألته عما به قال: إنه خائف.. فبالله مم يخاف هذا الرعديد؟

وزجرته همسًا: «اختش يا شيخ.. عيب».

ولكن من يقول ومن يسمع؟ أنا ممن جسده في مثل غيابات الجب التي أُلقي فيها يوسف عليه ألف سلام. وما أحسبه -أي يوسف- خاف مثل هذا الخوف الذي يخافه سونه، ولو فعل لكان معذورًا، فقد كان في جب، وكان وحده؛ أما هذا فما عذره؟ وهو في بيت، بل قصر معمور، وأنا معه لا أفارقه، وأؤنسه، وإن كنت لا آنس به؟ وهو -أعني سونه- على رأس السلم، وتحت ذراع أمه التي تهدئ من روعه وتعده أن تبقى معه، فكيف

يصغي إلى هذا الصوت الخافت الذي يشبه صوت الضمير، ويهمل صوت أمه الواعد بالأمن والاطمئنان؟ وأين في الناس من يلقي باله إلى الضمير الذي لا يُحسن إلا التنغيص؟

وتذكرت أيام كنت أنا حدثًا مثله في حياتي المستقلة، وقبل أن تتصل أسبابي بأسبابه - أي سونه- وكيف كنت أقطع طريق الصحراء الموحشة، وحدي، في الليل البهيم، وأجتاز منطقة القبور اختصارًا للطريق في الظلام الدامس، ولا أفزع ولا أتهيب، ولا يخيفني عفريت، أو قاطع طريق، أو مجرم متربص، وكان البيت الذي نشأت فيه في حارة عتيقة، وكان الغلمان غيري يقطعونها عدوًا حتى في النهار المشمس، لشدة ما ينتابهم من هولها، وكان بئر السلم -والعياذ بالله- يجعل قلب أجرأ الناس كلعبة اليويو، في صعود وهبوط بين الحذاء والصدر، فقد كان يوقع في الروع أنه مباءة العفاريت والقتلة، ومع ذلك لم أكن أقول: «يا ماما أنا خائف» كما يقول هذا الفتى الذي سوَّد وجهي. وقال عمه ساخرًا: «خائف؟ مِن أيِّ شيء يا سيدي؟».

فهمستُ في أذن سونه أوبخه: «سامع؟».

«وانت مالك؟» لعمه، لا لي.

فدهشت، وطربت! وصحيح أنه قالها بضعف، وبلهجة الطفل المدلل الذي إعتاد أن يسيء أدبه وهو آمن، ولكنه قالها والسلام. بارك الله فيه !ولا فض فوه!. ورجوت بعد أن سمعت منه ذلك أن ينتهي بنا الأمر إلى حسن المواطنة وطيب العشرة.

وانثنت أمه عليه تقول له: «لا يا بابا.. عيب.. هذا عمك».

فترك سونه عمه والعيب، وكرَّ راجعًا إلى رأس أمه وقال: «أنا خائف».

فكررت أنا أيضًا راجعًا إلى سخطي عليه. ولعله إنما أراد أن يخرج من المأزق فلا له ولا عليه. ولكنه ما كان ينبغي أن يعود فيلهج بالخوف مرة أخرى. والحق أقول: إنه خيَّب أملي.

١٣

وصارت المسألة عندي بعد ذلك، وأنا راقد على سريري -أعني على سريره هو كما هو ظاهر- في حضن أمي، وظهري إليها، ووجهي إلى الحائط، ويدها عليَّ لأطمئن، هي هذه «هل أطيق العِيش في هذا الجسد؟».

وقلت لنفسي: ينبغي أن أحصي مزايا هذا التحول ومساوئه، فمن المزايا أني رددت طفلًا غنيًّا، وكان من السهل أن يقلبني الذي قلبني، طفلًا فقيرًا، يسكن كوخًا حقيرًا، ويعاني مرارة الفاقة وذل الحاجة.

ثم إن هذه الأم رقيقة القلب حنانة، وهي إلى هذا تشبه زوجتي، بل هي هي بعينها، فأنا لا أشعر أني فارقت زوجتي، فإنها معي أبدًا، وإن كنت قد حرمت ما يجنيه الزوجان من متع القرب، ومن الهين رياضة النفس على هذا الزواج الروحاني وأخلق أن يعينني -أو يرغمني- على الاكتفاء به، أن لي هذا الجسد.

ويبقى الولدان، وفي وسعي أن أراهما متى شئت، كما رأيتهما الليلة، وإن بيني وبين أصغرهما لثأرًا ولكني بعد أن أصخه كما صخني، أستطيع أن أفيء به وبأخيه إلى الصداقة والمصافاة، ويكبران وأكبر، فما أغرب وأحلى أن نصبح أترابًا ونسيم سرح اللهو معًا، ونركب الحياة بشبابنا، وأكون لهما صديقًا لا

يعلمان أنه أبوهما، وأوقظ رأيي لهما، وأجعل تجاربي في حياتي الأولى رائدي في السهر عليهما ورعايتهما وتسديد خطواتهما، ولا يكونان هما معي إلا على حال الصديق مع صديقه من الود والألفة ورفع الكلفة وطيب المشاركة في الجد والهزل، أي نعم، وبذلك أصل ما انقطع، وإنه لعناء أن أتناسى أني أبوهما؛ ولكن لا بد مما ليس منه بد.

ولكن البلاء والداء العياء، أني لا أراني مطيقًا لاعتياض هذه الشخصية الفجة التي لم تنضج، من شخصيتي القديمة، كلا هذا عسيرٌ، وهو المعضلة الكبرى في الأمر كله، وما أرى الذي آتاني هذا الجسد الصغير إلا قد أخطأ وكلفني شططًا، ولو كان أهرمني وأعلى سني، وأسكنني جسدًا مقوس القناة وجعل لي وجهًا مغضنًا، كالمدينة بادية من طيارة، وأشع الشيب في رأسي لكان أهون، وأخف محملًا. ولكان أيسر على أن أتقبل هذه الوثبة إلى الشيخوخة وأسكن إليها لأنها هي التي تقترن في الذهن بالحياة مع امتداد العمر، والمرء يتوقعها ويعرف أنه يدلف إليها، ولكن استمرار الحياة لا يقترن في الذهن أبدًا بهذه الرجعة، أو بهذا الهبوط إلى سفح الجبل بعد أن قارب المرء ذروته. وليس في الحياة لا وقوف ولا رجوع إلى الوراء، فكيف يمكن أن أوطن نفسي على هذا المستحيل؟

وقد ألفتُ نفسي وانتهى الأمر وعرفت أنه نفسي، ورضيت بها وعنها، وإن خالف رأي الناس فيها رأيي. فكيف يعقل، وأنا لا أزال أحس هذه النفس،

وأعتز بها وأباهي، وأحرص عليها، وأضن بها أن أغالط وأقول بل نفسي هي هذه الجديدة التي ما عرفتها ولا خالطتها ولا بلوتها من قبل، ولا حمدت منها شيئًا التي على قصر عهدي بها؟ وإني لأدرك أن نفسي باقية معي، ولكن المصيبة أنها لا تتبدي، ويحجبها هذا الجسد الصغير الذي أسكنته. وأخوف ما أخاف أن يحصل على الأيام امتزاج بين النفسين، وما يدريني أن ثمرة المزج لا تكون ائتلاف أسوأ ما فيهما جميعًا؟ لا يا سيدي يفتح الله... هذا خلط غير مأمون العاقبة، ثم إني لا أريد خلطًا، ولا مزجًا ولا شعشعة. وما شكوت أو تذمرت حتي يفردني بهذا من قضاه عليَّ، وجعلني به بدعًا في الناس. فلا أنا أنا ولا أنا غيري. وأفزعني خاطر استطردت إليه؛ ذلك أني قلت لنفسي: إن الذي حدث لي لا يعدو أن يكون شبيه بالرفو والرقع، وإذا جاز هذا وتسنى فيما يلبس، فإنه لا يجوز ولا يسهل إذا كان الأمر أمر شخصية.

وصحيح أن الشخصية الجديدة التي يحصل بها الرفو أو الرقع جديدة، لأنها حديثة عهد بالوجود والحياة. ولكنها تبدو للشخصية القديمة التي يراد رفوها لا أدري لماذا فما كانت أخلقت وبليت أقول إنها تبدو دونها، وأقل منها قيمة، وأهون شأنًا، وأقل نفاسة، لأنها لم تنضج ولم تستوف الحظ المقدور لها من اكتمال الجوانب. وهذا كله يبدو لي خلطًا لا يحسن به الحال أو يستقيم الأمر، أو يطيب العيش.

ولما كان الذي سلخ جلدي. ثم لمني ودسني في هذا الجسد الصغير قد صنع معجزة، فلا بد أنه قادر أن يأتي أيضًا ما يقتضيه ذلك، فمن المعقول إذن أن يقل عقلي على الأيام ويصغر، حتى ينقلب مناسبًا لهذا الجسد الصبياني. ولعله استغنى عن معالجة التصغير بنفسه، ثقة منه بأن الجسد الصغير سيفعل فعله من تلقاء نفسه.

وتذكرت وأنا أدير هذا في نفسي أن بعضهم كان يقول عن خياط فيه شذوذ: إنه كان لا يقيس طول الزبون وعرضه بل يطرحه على منضدة ويخط له حدوده بالطباشير كما يفعل الحذاء حين يرسم قدمك على الورق بالقلم الرصاص. قالوا: وكان يقول للزبون إذا اشتكى ضيق الثوب: «كش فيه». فيظهر أن القدر يكلفني الآن ما كان هذا الخياط يكلف زبائنه من التجمع في الثوب الضيق، ويطالبني بأن «أكش» في جسد سونه حتى يصبح كلانا على قد صاحبه. وما أرى سونه يتجشم عناء. فإن العناء كله من نصيبي. وهالني هذا، وشقَّ على أن يقل عقلي، وأخذني النوم وأنا في حيرة واضطراب وجزع من أن يصبح عقلي أصغر مما أمسى. ورأيت فيما يرى النائم أني ولد صغير في كوخ لساحرة عند سفح جبل. ولم أكن أعرف من أنا ولا من أين جاءت بي، وكان كل ما أعرفه أنها تسخرني لخدمتها وترهقني بها، فتناولني دلوًا عظيمة وتبعث بي إلى الجبل! فلا أزال أصعد به حتى أبلغ قمته، وهناك أملؤها وأعود بها إليها. ولا أزال في هذا الكد المضني طول النهار. ثم تغير الحلم فصرت فيه كلبًا لعجوز فقيرة،

ولكنها طيبة القلب، فكنت إذا جعت نبحت، وقلت: «وو.. وو.. إني جوعان. فانظري في هذه الخزانة لعل فيها عظمة». ولا أزال أوهوه، وأمد صوتي، وأعوي متضرعًا حتى تجيئني بطعامي، وإذا بالعجوز الطيبة الكريمة تنقلب مستبدة ظالمة، فتصنع لي ثيابًا؛ سترة وسراويل وتلبسني طربوشًا، وتضع في يدي عصا، وتقول لي: اخرج وأضحك الناس والأطفال خاصة بألاعيبك وحذقك فيها، واجمع في هذا الطربوش ما يجودون به عليك من قروش أو ملاليم. فأخرج متذمرًا متأففًا، مستهجنًا هذه الملابس الآدمية التي لا تليق بكلب مثلي، ولا يسعني إلا الطاعة، وإلا ضربتني وأوجعتني.

وقد أثرت العجوز، فاتخذت غنمًا كثيرة تبيع ألبانها وأصوافها وصغارها، فنضت عني ما كانت كستني، ووكلت إليَّ حراسة الغنم في رعيها وسقيها ومرابضها، حتى أخذني البهر من الحر والمشي، وأضمرني الكلال، وهي لا ترحمني ولا تريح عصبي. ولا يعطفها علي ما أسلفت في خدمتها ولا تزداد إلا حرصًا وجشعًا ولا ترى لأحد شيئًا إلا أحبت أن يكون لها.

١٤

ولكل شيء آخر -حتى الليل الطويل الغاص بالأحلام المزعجة- ولم يكن نومي هنيئًا، ولا مريحًا، فما كاد الصبح يتنفس حتى تمطيت وحمدت الله على اليقظة من نوم قصير مضطرب، تثاءبت وفتحت عيني وقلت لنفسي: «صباح

الخير يا سونه، وعسى أن يكون يومك أطيب من أمسك». وخدثت نفسي أن اليوم السبت، فالأرجح أن أذهب إلى المدرسة، والله المعين. فما أعرف أين هي، ولا أدري في أي فرقة أنا، وتذكرت أني لم أر في هذا البيت كتابًا أو كراسة أو ورقة أو قلمًا. بل لم أر حتى لعبة لغلام مثلي، فما أغربه من بيت! وما أعجبها من حياة! وألفيتني أتساءل.

«أتراهم علموني شيئًا؟» وابتسمت، فما أحتاج إلى التعليم فإني كبير في الحقيقة، وأخلق أن يروع التلاميذ ويدهشهم ما يفاجئهم بعد اليوم من اليوم فصاعدًا من علمي وسعته، وسيكون أمر المدرسة التعليم فيها أهون ما أعاني: وإن كان «الحساب» سيضنيني ويرهقني فقد كنت -وأحسبني مازلت- أبغضه لأني لا أحسنه وما أكثر ما قلت لحمادة وسعيد -ولدي بارك الله فيهما، وصديقي وأخوي بعد اليوم حين كانا يجيئاني بمسألة من الحساب-: «اسمعا! أنا طول عمري حمار في هذا الحساب. ولا أدري كيف كنت أجتاز الامتحانات المدرسية فيه، ولكن الله كان يستر ويلطف، فينتهي الأمر بسلام وخير. وإني لأذكر أنه كان يراقبنا في امتحان الشهادة الابتدائية معلم فرنسي طويل اللحية. وكان ينحط على الكرسي وينام، فلما صرنا إلى الحساب لم أستطع شيئًا، وأيقنت أني لا محالة مخفق، فكدت أبكي. وتلفت فرأيت جاري على مسافة ذراع مني، مكبًّا على ورقته يكتب. وكنت أعرفه حاذقًا بارعًا. فدفعت إليه بورقتي وأرت إليه إشارة الرجاء والاستعطاف فرقَّ لي قلبه. وكتب لي حلول مسائل ثلاث،

فنهضت بالورقة وأيقظت بها المراقب.. وخرجت قبل غيري قانعًا بما جاد به زميلي».

فيذهبان عني إلى أمهما فإنها تفهم ما لا أفهم من هذا الحساب، وما أظن إلا أن المرأة أقدر عليه.

نعم سيكون الحساب علة شقائي مرة أخرى.

والجغرافيا أهون ولكنها ثقيلة، وكان معلمها يأمرنا أن نغني بأسماء الخلجان والأنهار والرءوس والبلدان لنحفظها عن ظهر قلب فحفظناها إلى حين ثم نسيناها، وكيف تبقى أسماء لا تقترن بشيء يُذَكِّر بها؟ فكيف يصنع معلمي الجديد؟ إنه لا شك من طراز أحدث فلعل له طريقة أخرى أجدي.

وانقلبت على جنبي الأيمن فصار وجهي إلى باب الشرفة، وتوقعت أن تدخل لولو بعد قليل وتصبحني بوجهها الحسن وابتسامتها الحلوة، وهممت أن أقول: تالله ما أجملها وأبرع حسنها، ولكني قلت بدلًا من ذلك «إيه؟» بلهجة المنكر لا المستفسر، وجلست في السرير، وفركت عيني، وجعلت أطرف، ثم رحت استثبت، فقد أصبحت في غرفة أخرى غير التي أعرف أني قضيت الليل فيها، أفتراني سأنتقل كل صباح أو كل ليلة إلى بيت جديد وبدن جديد؟ ولكن هذه... هذه غرفتي!! أي والله هي بعينها.

ووثبت إلى الأرض، وذهب أعدو إلى الباب فأدرت فيه المفتاح، أو أردت أن أديره، ولكني كنت عجولًا فخرج ووقع على الأرض، فانحنيت وتناولته وأنا

أسخط على نفسي ودفعته في الثقب، أو جعلت أدفعه فلا يدخل من فرط اضطرابي وارتعاش يدي، وبعد لأي ما فتح الباب، فانطلقت خارجًا كالصاروخ، وداخلًا على زوجتي في غرفتها، وكانت لا تزال نائمة، فطرحت الغطاء الرقيق الذي تستر به جسدها وجذبتها من ذراعها. فقامت معي تقول: «إيه؟ إيه؟ مالك؟».

قلت أو صحت: «قومي يا امرأة... بسرعة انظري إليَّ.. ألست كما كنت؟ هل تغيرت؟».

قالت: «ماذا جرى لك؟ ما هذا النط الذي تنطه كالقرود؟».

قلت محتجًا: «قرود؟ أسألك كيف ترينني فتقولين: إني أنط كالقرد؟».

قالت: «ماذا أصنع إذا كنت تنط مثلها تمامًا؟»..

قلت: « طيب. دعي هذا وقولي كيف ترينني؟».

قالت ببرود: «مالك؟ كما كنت سوى أن خدك وارم».

قلت: «خدي وارم؟» ورفعت يدي إليه أتحسسه، وسمعتها تقول: «قرصة نملة على ما يظهر».

قلت: «وكيف ترينني فيما عدا ذلك؟».

قالت: «أراك قليل الذوق. توقظني في الفجر لتسألني سؤالًا باردًا. ماذا جرى لك؟».

قلت: «إنها تسأل ماذا جرى لي؟».

وخطر لي أنها لا تعرف فلها العذر، وأدرت عيني في نفسي. فألفيتني على عهدي بها، لا كما كنت أمس أعني.. تعرف ما أعني؟ ودفعت يدي إلى وجهي، فشعرت بخشونة الشعر النابت، وإلى شفتي العليا فإذا عليها الشاربان، فتشهدت وتنهدت، وارتميت على كرسي. وسمعتها تقول وهي تضع رأسها على المخدة: «اذهب ونم فما زالت من الليل بقية».

فوقفت، وقلت: «أنا أنام ؟ مستحيل...».

قالت، وأدارت وجهها عني: «شأنك. أما أنا فسأنام. فاذهب عني من فضلك».

قلت أعاتبها: «وتتركيني؟».

قالت مستغربة: «أتركك؟ لست فاهمة. مالك اليوم؟».

قلت: «أولًا لا تقطبي، ثانيًا اجلسي أقص عليك حكاية، وبعد ذلك قولي لي: هل يجوز أن أخاطر فأنام مرة أخرى؟».

فاعتدلت، وقصصت عليها ما كان مما رأيت في الحلم، وهي تضحك. فلما فرغت قالت: «هذا جزاؤك ألم أحذرك؟ ألم أنهك أن تذكر الشيخة صباح إلا بخير؟».

قلت: «ولكنك أنت التي قصت علينا حكاية البستاني والملك فأوحت إليَّ ما تمثل لي في منامي».

قالت: «بل هذا من غضب الشيخة صباح عليك».

وكانت أعصابي لا تزال مضطربة من أثر الحلم، فلم أجادل ولم أكابر.

ولما أضحينا قلت لها: «ما قولك؟ اليوم السبت وليس عليَّ عمل».

قالت: «سبت؟ سبت إيه؟ إنه الجمعة!».

قلت: «الجمعة؟ كيف يمكن؟ لقد كان أمس الجمعة».

قالت: «ألا ترى أن الولدين لم يذهبا إلى المدرسة؟».

قلت: «صحيح! وغريب أن أعيش الجمعة مرتين في أسبوع واحد... على كل حال... أريد أن أقترح أن نركب السيارة إلى طنطا ونزور الشيخة صباح».

قالت ويداها في حجرها، وعيناها إلى فوق كأنما ترى الشيخة صباح في السقف: «إني لا أشبع من النظر إلى حسن وجهها».

قلت: «اتفقنا إذن».

***

ورفع السجف، ودخلت علينا الشيخة صباح في شملتها البيضاء تمشي كأنها ملكة، فنهضت واقفًا، فافتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة، وناولتني يدها فانحنيت أريد أن ألثمها، ولا أخشى أن تسيء بي امرأتي الظن. ولكنها جذبتها فاعتدلت وقلت لها: «أنا أعرف أنك لا تأخذين منا شيئًا. فخذي هذه الساعة».

فهزت رأسها، ولكني وضعتها في كفها، وثنيت عليها أصابعها. وقلت: «إنها ساعة أمي. وكنت أعتز بها وأضن».

فتطلق وجهها وتهلل. فقد كانت تعرف عظم محبتي لأمي، التمعت عيناها، ورفعت على شفتيها ابتسامة، ورفعت الساعة إلى أذنيها وأصغت، ثم هزت رأسها مسرورة، ونحت الشملة عن صدرها. ووضعت الساعة هناك... قريبًا من قلبها.

ثم تناولت رأسي بين يديها، وتحركت شفتاها بدعاء لم أسمعه.

وقالت: امرأتي ونحن نعود إلى السيارة: «الآن تستطيع أن تنام مطمئنًا».

قلت وأنا أستوي على مقعدي: «ولا تقصين على مثل هذه الحكايات؟».

فرنت إليَّ في سكون كأنما توضح شيئًا، ثم ابتسمت وهزت رأسها: أن نعم.

فجمعتها بين ذراعي وبستها.

فقالت: «في الشارع؟ ألا تستحي؟».

قلت: «هذا من فرحتي بك. واحذري أن تغالطيني مرة أخرى».

قالت: «أنا أغالطك؟».

قلت: «نعم. في المنام».

فضحكت.... ووسعني أن أضحك مثلها...

تمت